عمران

# حشيش سمك برتقال

رواية





دار الساقي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

هدى عمران

# حشيش سمك برتقال

آفاق AFAC

دار الساقي

الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-03-2063-5

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13-5290، لبنان
هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

إلى كلّ الأيام التي تمرّ

أحدهم ينام فيّ، يأكلني ويشربني.

أليخاندرا بيثارنيك

# الفصل الأول

## -١-

مرَّ اللقاء سريعاً.

بكلمات مقتضبة، شرحت المرأة شكل المساحات وحدودها داخل البيت: "هذه مساحتي، وهذه مساحتك، وانتهينا".

لم يأخذ الأمر وقتاً. لم تفرض شروطاً خاصة، واتفقنا على نقل حاجاتي أول الشهر.

وقفتُ على عتبة الباب، ومددت يدي لأسلم عليها، لاحظت أن يدها باردة ووجهها شاحب، فتراجعت عن الذهاب، وطلبت إلقاء نظرة ثانية إلى الغرفة، وهي لم تمانع.

النزول على سلالم هذا البيت يشبه الدخول إلى متاهة، هناك ستة طوابق، وهذه الشقة أعلى نقطة فيهم، كل شيء هنا مجهز ليصبح أسود ومظلماً، كأنه ليل بلا انتهاء. سلالم دائرية، وظلام يخفف حدته بعض الأنوار المتسربة، من أعقاب الأبواب.

الطابق الأسفل لشقة المرأة معتم طوال الوقت، هناك شقتان مغلقتان ومظلمتان، لا أنوار تأتي من خلف أبوابهما لتخفف السواد الذي يغلفه، تتجمع بين شقتيه عشرات القطط التي تموء وتقترب من

أي شخص يصعد أو يهبط إلى هنا. بقية الطوابق عُلِّقَت عليها يافطات لمكاتب محامين ومحاسبين، كنت أراها مغلقة أغلب الوقت.

تركتني المرأة أتحرك في الطرقة الطويلة وهي خلفي. الإضاءة الخافتة سمحت بصناعة أكثر من ظلٍ لها على الحائطين. على يميني وعلى يساري. مشت المرأة ثمَّ توقفتَ عند باب غرفتها وألقَت من بعيد مفتاح الغرفة التي ستكون لي، حاولت التقاطه لكن سرعتي كانت أقل من سرعة رميتها، فانزلق في مكانٍ ما، بين الغرفتين، انحنيتُ للبحث عنه، لكن المرأة أمرتني بحزم وهدوء ألا أفعل، ثم دخلت إلى غرفتها، ورجعت في يدها نسخة أخرى. وقفت جواري وفتحت باب الغرفة، أزاحته بقوة، فأصدر أزيزاً خفيفاً، وتراجعت إلى الخلف.

سرتُ في الغرفة الجديدة خطوتين إلى الأمام. هناك شباك متوسط الحجم يطلّ على منور البيت الكبير. يساراً تتسع الغرفة كأنها مثلث. يوجد سريران: واحد بطول الغرفة، والآخر يقطعه بالعرض، وفوقه شباك صغير ملطّخ بآثار دهان للأثاث، بالتحديد دهان أبيض. خلف زجاج الشباك كانت أشعة الشمس تتسرب من الشيش المغلق. دخلت لأتفحص الغرفة، فسعلت بشدة، وشعرت بالتراب الكثيف يملأ رئتي، كل شيء هناك كان مغطى بغبارٍ كثيف. والسعلة كانت قوية إلى الحد الذي جعلني أبصق رغماً عني على الأرض، تراجعت مباشرة إلى الخارج قبل أن تكتشف المرأة فعلتي، وأغلقتُ الباب خلفي، لم أجدها مكانها في الطرقة الطويلة، فخرجت لأبحث عنها في الصالة، ثم في المطبخ، ولاحظتُ أن باب غرفتها كان مُغلقاً، فارتبكتُ وشعرت أن وجودي ليس له معنى، فتركتُ البيت.

شعرتُ بدوار خفيف وباختلال توازني على السلم بسبب نزولي في الظلام. كنت أحاول استعادة حركتي، وأفكر في الوقت نفسه في كيفية قضاء بقية الأيام حتى أول الشهر. كان عليّ البقاء عند صديقتي التي طردتني تقريباً من بيتها. فكرت في بيت للمغتربات، لكن هذا معناه أنني ساهدر جزءاً من المال المتبقي معي حتى آخر الشهر. أعرف أن حتى خيار السُكنى مع امرأة غريبة كان مخيفاً، لكنه اضطراري.

فكرت في الاتصال بالمرأة لأطلب منها الانتقال إلى البيت غداً، فاتصلت هي لتعتذر. قالت إنها غفت قليلاً ولم تشعر بمغادرتي البيت. وقالت إنني أستطيع الانتقال متى أحب. لم أتردد، وطلبت منها الانتقال اليوم إذا أمكن، واتفقنا أن آتي في السابعة مساءً.

كان عليّ تقضية النهار في أي مكان، ثم الذهاب لأخذ الحقيبة من الصديقة، وبَعدها الانتقال إلى البيت الجديد. فكرت في التسكع حول المنطقة، وكانت بداخلي رغبة مُلّحة للمشي وحيدة. حُمت حول البيت الجديد، ودُرت في الشوارع المجاورة. يقع البيت على بُعد محطتين من وسط البلد، في منطقة بين القصر العيني والتحرير. يقع البيت الكبير في شارع واسع، وتقع شقة المرأة في آخر دور. وهناك سوق للسمك في شارع موازٍ لشارع البيت. علي أن أجتاز زُقاقاً ضيقاً حتى أصل إليه، جذبتني الجَلَبة النهارية إلى هناك. عندما دخلته أجبرتني الرائحة النتنة على الشعور بالغثيان. أخذتُ نفساً عميقاً، ثم أكملتُ السير.

يشبه هذا السوق أسواقنا القديمة، أعرف هذه التفاصيل جيداً. أتأمل الباعة والبضاعة المرصوصة أمامهم، وكل أنواع السمك،

البلطي الكبير والصغير، والمكاريل، والمكرونة والسردين، والجمبري أيضاً.

بطريقة هزلية، السير جوار السمك يذكرني بالحب، بصورة القُبلة المتحركة على "فايسبوك" التي حولت أصحابها إلى ثعابين بحر. أقول لنفسي: "ما الذي سيحدث إذا أكلت هذه الثعابين، هل سألمسُ هذا الحب؟ أم أنني سأقع في الغرام المستحيل طول حياتي هذه؟".

فكرت بالفعل في شراء سمكة كبيرة لأشويها بنفسي. الطريقة سهلة، وكل شيء يمكن أن يحدث بأقل الإمكانات. لو استطعت فقط الوقوف قليلاً وتدخين سيجارة في أحد الأركان.

شعاع الشمس الخافت كان يتسرب بين الثنيات التي تصنعها البيوت المتلاصقة. انفلت منه شعاع واهن استقر على نصف وجهي المنعكس على مرآة معلقة في محل صغير للتحف، محشور بين محال وباعة السمك.

بالنسبة إلي كان صاحب محل التحف هو صاحب العالم في هذه اللحظة، بنفسية لا مُبالٍ عتيد، لا تهمه الروائح النتنة المنتشرة في الأرجاء، ويصر على البقاء صامداً بتحفه المغبرّة الراكنة أمام الدكان.

هناك فونوغراف جوار عتبة الباب من الداخل، تلف إبرته على أسطوانة عتيقة تمطر بصوت أسمهان: "نغم في الجو له رنّة، سمعها الطير بكى وغنى". وهناك دولاب للتحف إلى اليمين، وثلاث مرايا بيضاوات بأطر ذهبية إلى اليسار. والرجل يجلس على كرسي صغير داخل المحل ممسكاً بجورنال.

أرى الدكان منفصلاً بأكمله عن المكان، وأراني جزءاً منه، كأنني

انضممت إلى صورة ساكنة وقديمة. وفكرت أن أي شخص سيمرّ من هنا، سيراني جزءاً أصيلاً من الدكان، حيث وجهي له ظلاله الممتدة على الأرض، وقد انقسم بسبب شعاع الشمس الواهن إلى ثلاث قطع في المرايا المحدقة من بعيد.

رأيت المرأة صاحبة البيت ببلوزة سوداء وبنطلون أسود قطني تمر أمامي. أظن أنها ما زالت لا تعرفني. قد يكون اللقاء القصير غير كافٍ لها للتحقق جيداً من وجهي. وقَفَت ثانيتين أمام المرآة، فأصبحت الصورة من الخلف هكذا: جسد امرأة ببلوزة سوداء يظهر في مرآتين متجاورتين، ذراعها في واحدة، والكف على رأسها يظهر في المرآة الأخرى. أنا كنتُ خلفها تماماً بفستان أخضر، وشعاع واهن من الشمس يسقط على شعري، فيُظهِر الشعيرات الصفراء المتناثرة على الفروة البنية.

زادت رغبتي في تدخين سيجارة بلا مبالاة وسط السوق، فكرت في كسر المسافة بيني وبينها، سأخطو ببطء، سأتكلم معها ببساطة: "أنا فلانة".

ثم أدعوها لتأكل معي السمكة المشوية، ونشرب بيرة كما في الأفلام، ثم أصارحها أنني وقعت في غرام صورة متحركة، وأن كل ما أريده هو قبلة كقبلة "فايسبوك" حتى أتحول إلى ثعبان بحر. لكنني تراجعت، وشعرت أنه شيءٌ مُربِك في المرات الأولى أن تتحدث مع الغرباء عن الحب. تراجعت وقررت دعوتها إلى شرب فنجان قهوة في المقهى القريب حتى ينشأ بيننا حديث حميمي، ثم أخرج الهاتف وأريها الصورة لتقتنع بوجهة نظري: "انظري، كم جميل أن يتحول

الإنسان إلى ثعبان بحر. تجربي؟!".

كانت تشبه الأسماك بالفعل في ملبسها الأسود، تقف وترتب شعرها بعناية أمام المرآة. أرى الرجل صاحب المحل وهو ينظر ناحيتها، ثم ينظر ناحيتي ويعود إلى جورناله. بعد ثوانٍ من وقوفها تحركت المرأة بِهوادة. كانت تمشي بنظرة زائغة إلى الأمام. تختفي من أمامي، فيعود وجهي ثلاثة وجوه في المرايا. أراها وهي تتحرك بخطوات ثابتة نحو الفراغ الفسيح الذي يبتلعها، ويحولها إلى سمكة طائرة مجنونة. حاولت تتبع خطواتها المهندمة بخطواتي المتعثرة، كانت تظهر أمامي في شارعها المتسع بجسدها النحيل، تركتها تسبقني لتصل إلى أول الشارع. رأيتُ شبحها ينزوي في الفناء المظلم، وسمعتُ خطواتها الرتيبة من بعيد تصعد سلم البيت.

-٢-

هل كانت تعرف المرأة ما كنت أفكر فيه تحديداً وأنا أنظر إلى وجهها الغريب؟ هذه النظرة الباهتة في العينين المسحوبتين، والفم المحدد الواسع، وأنفها الدقيق، وعظام وجنتيها الغائرتين كأنها عظام وجه ثعلب. شيء فيها كان أنيقاً، قد يكون فستانها الأسود البسيط، أو الملمس القطنيّ السادة المنسدل على جسدٍ محايد، أو كلماتها القليلة، أو عضلات وجهها غير المنفعلة، بوصف أدق مرتاحة ومنبسطة. لماذا فكرت في أنها ثعلب أسود قاتم؟ خاصة وسط الظلام الذي يغطي البيت؟

وضعتُ حقيبتي أمامي، وجلست على كرسي كبير أمامها. جوار الكرسي - على اليمين وعلى اليسار - شباكان كبيران، مغطيان بستائر ثقيلة. لفت انتباهي جمال الستائر، لونها يقع في آخر درجة من درجات الأخضر، منقوش عليها شجرة ضخمة خضراء، متفرعة إلى الأعلى، تمتد جذورها إلى آخر الطرف، تتلقي تحتها وريقات صفراء ذابلة. يبدو أن المرأة لمحت نظراتي تجاه الستارة، إذ قالت إنها تحب استخدام نوعٍ ثقيلٍ من القماش لأنها لا تتحمل برودة

الشتاء. أربكتني ملاحظتها، وشعرت بالحرج، فحاولت الابتسام.

كنتُ مرهقة إلى الحد الذي منعني من الكلام، وهي كانت صامتة أغلب الوقت، تقف فجأة وتتحرك إلى غرفتها أو إلى المطبخ، ثم تعود إلى كرسيها.

بعد نصف ساعة شعرت أنني أتهاوى تعباً، فطلبت منها مفتاح الغرفة حتى أنام. ردت بابتسامة محدودة ووقفت، حملتُ حقيبتي وتبعتُها. وقَفَت عند باب غرفتها وتركتني أتخطاها، فوجدتُ غرفتي مفتوحة، والمفتاح في عقب الباب، التفتُ أحيها، فسبقتني بتحية مقتضبة، ووقفَت تنتظر حتى دخلتُ وأغلقتُ الباب خلفي بالمفتاح.

زجاج الشُباكَين كان مغلقاً، لكن الشيش خلفهما مفتوح. رأيت القمر كاملاً وقريباً، والجو كان جميلاً ومعتدلاً، فقررت النوم على السرير الذي يقع أسفل الشباك. وضعت حقيبتي على السرير الآخر، وأخرجت بشكيراً فردته على المخدة المتسخة، ثم أغلقتُ النور وتمددت لأراقب القمر وضوءه المنبعث إلى سريري. كانت جواره نجمتان قريبتان لامعتان، وحوله نجوم صغيرة متناثرة. بدأت العدّ، تزداد النجوم كلما أمعنت النظر، تبزغ نجمة جديدة كلما كدتُ أن أنتهي. خلف الزجاج الملطّخ بدت مجرة كبيرة تخصني وحدي، يشاركني فيها الساهرون.

فتحت الشباك لأشم رائحة الهواء، كان مكاني هنا يطل على شارع خلفي، تتناثر فيه بعض المحال الصغيرة، أغلبها كان مغلقاً في هذا التوقيت. هناك شعورٌ بالسكينة دبّ في روحي. أول مرة في حياتي

يكون لي غرفة تخصني وحدي.

رغم البرودة لفحني الهواء. ومع الإرهاق الشديد نمتُ من دون غطاء باستكانة تامة في هذا الوقت المبكر من الليل. في منتصف نومي أرقت، وسمعت صوت وقوع شيء ثقيل في الخارج، فصحوت.

يبدو أن الليل لم يكن قد انتهى عندما استيقظت. كان الزجاج مغلقاً، لكن تيار هواء يتسرب من بين درفتيه، والسماء أمامي كانت ممتدة، لونها رمادي يمتزج بالبنفسجي. السحب البنفسجية تنسلخ من الضباب وتتمدد في السماء. القمر باهت ومنزوٍ، والشمس بدأت بالبزوغ، لكنها بعيدة وباردة.

أطللت من الشباك لأتأمل ما يحدث. سمعت صوت الكلاب في الشارع. كانت عشيرة من الكلاب، يتقدمهم واحد أسود كبير، يلهث فيلهث الآخرون خلفه. في أول الشارع عشيرة كلاب أخرى، كانت هذه حرباً على النفوذ لم تستمر طويلاً بسبب تجمع بعض أصحاب المحال. صرخ أحدهم في الكلب الكبير، بل شتمه، انسحب الكلب ومعه أبناؤه، وأطلق عواءً قصيراً يدل على الحزن أو الهزيمة.

بعد هذه المعركة عاد الصمت مرة أخرى، كان كبيراً ومتمدداً، شعرت أنني أجلس داخل الصمت، قلت لنفسي ذلك وأعجبني التعبير، "أجلس في الصمت"، أتمدد عليه، أتدلى من فوقه. لوهلة شعرتُ بنفسي منعزلة تماماً معه، توحدت معه، ثم قلت لنفسي أنتِ الصمت ذاته، ثم بدأت أسمع أنفاسه، كانت لاهثة، ومتقطعة، ومنفعلة. كانت الأنفاس تعلو، والصمت ينكسر بصوته الأنثوي البديع، ثم هدأ الصوت، سكت، بعدها بدأ اللهاث مرة أخرى. كان يعلو تدريجياً،

وانفصل عني، سمعتُ صوته من الخارج، فتحتُ الباب، وكان الصوت أعلى، والظلام كبير. تحسست طريقي في الطُرقة الطويلة بهدوء. كانت الأنفاس اللاهثة تخص المرأة، ونور خافت ينبعث من غرفتها، وبابها موارب. مشيتُ بهدوء قدر ما أستطيع، مستندة بيدي إلى الحائط. تأكدت أن الصوت لها، واقتربت من الباب بتؤدة. كان النور أحمر خافتاً ينبعث من أباجورة موجودة على كومودينو صغير جوار السرير. النور يغمر جزءاً من الحائط، لكنني لم أتمكن من الرؤية الواضحة، فاقتربت أكثر من الباب، وأزحته قليلاً بإصبعي، كانت المرأة مستلقية أمامي على سريرها، وهناك رجل يعتليها، لم أرهما بشكلٍ واضح، رأيت ظلالهما على الحائط، كانت ظلالاً طولية على السقف، جسدان بشريان متداخلان. حاولت التدقيق لأرى الرجل، لكنه كان منكباً بعنف على المرأة، وهي كانت تشتعل بصوتها وبحركاتها، ثم تهدأ لفترة، وتشتعل مرة أخرى. صوتها أكثر ما جذبني في المشهد، تمنيت لو تكلمَت بأي كلمة، لكن صوتها كان مجرّد تأوهات ممطوطة، والرجل الغريب لا أسمع منه سوى أنفاسه العالية. كانت المرأة تعلو معه ثم تسقط مرة أخرى. رأيتُ يديه تمسك فخذيها، ثم فجأة رفع رجليها إلى الأعلى، فعَلَت أنفاسهما معاً. الصوت علا كأنه طبل في أذني، فتحت الباب أكثر، كنتُ أقف أمامهما تقريباً. فجأة سمعت صوت الرجل، كان يتأوه بضراوة، ثم سمعت صرخة متوحشة من المرأة، لم أستطع التراجع، تسمرت قدماي في مكانهما، والتقت عيناي بعيني المرأة، وكل شيء أصبح مثيراً للغثيان.

-٣-

كيف أصف بشاعة تلك النظرة التي تقع بين الالتماع والانطفاء، هذه العيون التي حدقت إليّ في الظلام بكل الحقد الدفين، تحديقها الطويل الثاقب، حتى عندما خمد الجسد الذي فوقها، كأنه ذهب مباشرة إلى نومه العميق، ظلت محدقة دون رمشة عين، عيناها في عينيّ، بصمتٍ ممتد كسرته بحركة خفيفة، التفتت بها إلى الحائط لتجعلني أنسحب بهدوء.

ظللتُ في غرفتي حتى الظهر، ثم نزلت دون التفاتة إلى الغرفة الأخرى أو الصالة. تمشيتُ في السوق، ودرتُ فيه كله دون أن أشتري أي شيء. عقلي كان يعيد اللحظة ويعيد تمثيلها أمامي، أرى عينيّ المرأة في كل شيء حولي، أسمع همس تداخل جسدها بجسد الرجل الغريب، رأيت الظلال الايروتيكية على جوالات البطاطا.

توقفت أمام بائع التحف، انتظرت أن يفتح دكانه المغلق، انتظرتُ ساعةً كاملةً لكنه لم يأتِ، فكرتُ أنه قد يكون مريضاً، أو أن هذا يوم عطلته. السوق خالٍ من متعته الوحيدة، وأمام الدكان افترش بائع صغير قفصاً فيه جمبري وسمكتان كبيرتان. أظنهم يعرفون موعد

إجازته، وإلا لما جرؤ الولد على استخدام ناصية المحل للبيع. فكرت أن أذهب وأسأل الولد عن ميعاد فتح الدكان، لكنني تراجعت عن سؤالي، واستبدلت به مفاوضات جادة لشراء سمكة من السمكتين. حاول الصبي إقناعي بشراء الاثنتين معاً، لكنني رفضت واشتريتُ واحدة، لفّها في جورنال متحججاً بعدم وجود أكياس، أخذتها ورحلت في طريقي. ألقيتُ نظرة أخيرة على دكان الأنتيكات المغلق، وعتبته ملطخة ببقايا الأسماك، والذباب مستكين في الظّل أمامه.

مشيتُ في السوق وقتاً طويلاً. كنتُ أخاف الرجوع حتى لا أجد الرجل مرة أخرى. وسألت نفسي: "لماذا لم تقل لي المرأة إنها تعيش مع زوجها؟ كيف يقبل الرجل وجودي أصلاً؟"، لكنني فكرت في أنه قد لا يكون زوجاً، قد يكون عشيقاً، وتذكرت نظرتها المخيفة منسابة من العيون البُنية، وتمنيتُ ألا أعود إلى هناك، لكنني عدت.

صعدت السلم إلى آخره متخيلة الرجل أمامي، قلت لنفسي سأرى وجهه وهو يصطدم بي، سأكون أنا أمام الباب وهو خلفه، أو سأراه ممدداً على الكرسي الكبير جوار النافذتين وعلى جانبيه تتدلى ستائر الأشجار. تذكرت يده وهي تمسك فخذي المرأة، ثم استكانته المباغتة بعد المضاجعة، كأنه ميت في داخلها.

لففت السمكة جيداً داخل الجورنال، وتخطيت القطط المكومة على سلم الطابق الخامس. صعدت بسرعة، ولم أتردد وأنا أرن الجرس. فتحت المرأة الباب، ولم تتكلم معي.

خَطَت ببطء ناحية المطبخ. كانت ترتدي روباً حريرياً لونه أصفر، وتصدر صفيراً يشكل لحناً ناعماً. شجعني هذا الهدوء على

الدخول خلفها إلى المطبخ لتحضير السمكة. وجدتها تضع سمكة أخرى كبيرة من النوع نفسه داخل طبق أبيض على المنضدة الخشبية الصغيرة. ابتسمتُ وقلت لها: "أنا أيضاً اشتريت سمكة. هذه مصادفة جميلة أول يوم في السَكن معاً".

كان ظهرها لي، تقف أمام البوتاجاز تطبخ الأرز الأبيض، التفتت إليّ وابتسمت، وأدارت وجهها مرة أخرى. شعرت بالراحة من طريقتها، وقلت لها إنني سأنظف السمكتين معاً، فلم تمانع، ردت بابتسامة أيضاً.

وضعتُ كرسياً أمام المنضدة، فصرت في مواجهة ظهرها. كانت تنحني على البوتاجاز تقلب وتقلب دون توقف. انتقيتُ سكيناً رفيعاً وبدأت تقشير الحراشف، بعدها فتحت بطن سمكتي وأخرجت أمعاءها، وسألتها إن كانت تريدني أن أنظف لها السمكة أم تفضل أكلها بأمعائها، فهزت رأسها دون التفاتة وقالت: "بطنها".

أخذت السمكتين ووضعتهما تحت الماء في الحوض، الحوض جوار البوتاجاز الذي تقف أمامه، وبينهما نصف متر فارغ وقفتُ فيه على يسارها، أغرق جلد السمكتين بالماء، وأتبلهما بالملح والليمون والثوم، وهي تجاوزتني لتضع الأرز داخل طبق كبير. تركت لي مكاناً أمام البوتاجاز بعد أن أخرجت طاسة القلي وفي داخلها الزيت، وضعت الدقيق الأبيض أيضاً جوار الطاسة على البوتاجاز، وجلست على الكرسي الذي كنت أجلس فيه أمام المنضدة، فأصبحتُ في زاوية استطعت أن ألمحها فيها بنصف عين، كانت تأكل من طبق الأرز بهدوء ودون توقف.

وضعت السمكتين في الزيت المغليّ، وتركتهما تنضجان. عندما أخرجتهما والتفتُّ، وجدت الكرسي فارغاً، وطبق الأرز ليس في مكانه، فوضعت السمكتين في طبق واسع، وذهبت لأناديها، وجدت باب غرفتها مغلقاً، طرقت بخفة، لكنها لم تفتح أو ترد، فكرت في فتح الباب، لكنني تراجعت عندما تخيلت وجه الرجل في الداخل.

عدت وحيدة إلى المطبخ الصغير، رأيت الأطباق الزرقاء والبيضاء المنقوش عليها أزهار صفراء، مرصوصة بعناية على حامل الأطباق. في الدور السفلي من الحامل رُصّت الفناجين، فناجين بنقوش دقيقة، البيضاء مرسوم عليها روميو وجوليت، والزرقاء أزهار ذهبية. أخذت طبقاً أزرق، وضعتُ عليه سمكها، كانت مغلقة ومنتفخة، وعينها الباهتة المقلية تحدق إلى الطُعم الذي اصطادها. سمكتي كانت مفتوحة ومفرغة الأحشاء، مجهزة للأكل النظيف. أخذت السكين، وبدأت أنزع اللحم عن الشوك والجِلد، ظهر اللحم الأبيض مفتّحاً يخرج منه خيط دخان برائحته الشهية. غمست اللحم في الملح والكمون، وأكلت بنهم. كنت أشعر أنني لم آكل منذ أيام، وانتهت سمكتي دون وصولي إلى الشَبَع، فأمسكت السكين وبدأت تقطيع سمكة المرأة إلى شرائح، ورششتُ عليها المِلح والكمون، وفكرت في أكل شريحة، شريحة واحدة فقط. غرست السكين في قلب القطعة الدائرية وحركتها ببطء، نظرت إلى رأس السمكة المنفصلة عن جسدها وحدقت إلى عينها الميتة، تذكرت نظرة المرأة وجسدها تحت جسد الرجل، ورأسها مشرئبّ كأنه منفصل ومستقل عنها، وعينيها الزائغتين تجاهي، والنظرة التائهة، ثم الالتفاتة التي

أرجعت الرأس إلى جسد كومته بأكمله في كَتَف الرجل، ثم التفاتها وابتساماتها القصيرة في المطبخ، وصوت أسنانها وهي تمضغ الأرز برتابة وهدوء، وغيابها القصير في الداخل. تراجعتُ عن الأكل، رصصت قطع السمك في طبقٍ نظيف وغطيته بطبقٍ آخر، وفكرتُ في النوم.

## — ٤ —

ظلت المرأة في مخبأها حتى الليل. وأنا ظللتُ مكاني في المطبخ، بنظرة معلقة بين الطبق المغطى، والأكواب والفناجين على الحامل. من نافذة المطبخ دخلت ذبابة كبيرة واستقرت على الطبق المغطى، أظنها كانت تريد منفذاً إلى السمكة، لكنه كان محكماً أكثر من اللازم. لم تسعفها قدرتها إلا على الدوران فوق الطبق. حامت حوله وأصدرت طنيناً مسموعاً، ثم تحركت نحو الحوض، كانت تشرب من القعر، رأيتها تغوص في الماء، ثم اختفت.

صوت طنين الذبابة جعلني أفكر في الأكل، شعرت بالجوع مرة أخرى، وبالرغبة في أكل البرتقال، فقررت النزول. أخذتُ شالي ولففته حول رقبتي، وحشرت ورقة في الباب حتى أستطيع فتحه دون الحاجة إلى الطرق عندما أعود.

تنبهت الآن لامتلاكي جزءاً من هذا البيت، وأنه لا بد من امتلاك نسخة من المفتاح أيضاً، فكرت في المرأة النائمة في الداخل، وفمها المتمع وهي تتكلم، وتحركت بحرص وبتكتم خشية إيقاظها، كان خوفي من نظرتها ما زال مستمراً، ولم أتأكد بعد من طباعها.

رغم الساعة التي لم تتجاوز التاسعة مساءً، فإن الشارع كان مظلماً، وصوت هدير موتورات السيارات يأتيني من بعيد. الهواء أيضاً كان له صوت، يصطدم بأنفي، فيشكل هسيساً حاداً، كان هناك بوقاً وهناك من ينفخ فيه، فيصنع تيارات دائرية وباردة.

طوحت الهواء بيدي بعيداً، أزحته إلى الأمام كأنني أسبح في الشارع. الناس حولي مضيئون، يرتدون ألواناً براقة، الشارع المظلم يشع باللون الأصفر من كل اتجاه، بلوزة صفراء ترتديها فتاة نحيفة جداً، تيشيرت لفتى بعيد، إيشاربات على الرؤوس، بنطلونات وجونلات، كلهم تحولوا إلى أزهار عباد شمس في الليل. كنت بملابسي الرمادية أشبه بكائن لا مرئي، سيعبر حتماً من خلال أجسادهم، قد يمتزج داخل اللون الأصفر الزاهي ويتبخر هناك، ولا يعود له أثر كأنه لم يكن موجوداً.

نفذت من الشارع الضيق إلى الجوار، ودرت حتى دخلت السوق. كان خالياً إلا من بعض المارة وبعض الباعة وأمامهم بقايا بضائعهم الفقيرة. قطعت الشارع الطويل حتى أصبحت في الطريق العام، هناك السيارات تمر بسرعة جنونية، راهنت نفسي على العبور من جهة إلى أخرى في ١٠ ثوانٍ، مددت ذراعي إلى الأمام وتحركت ببطء ثم أسرعت. من بعيد كانت سيارة مرسيديس خضراء تتحرك بسرعة، وأنا فاجأتها بوجودي، سمعت صوت الكلاكس، لكنني تحركت أسرع واخترقت الحاجز، مرت ١٠ ثوانٍ بالتمام والكمال عندما وصلت إلى الناصية الأخرى.

شجعتني المقامرة الصغيرة مع نفسي على السير في اللعبة،

فحددت ثلاث دقائق، ونقطة معينة. عند تلاقي طريقي مع الطريق الجانبي شعرت بالخفة، فنزعتُ الشال عن رقبتي وأمسكه بيدي، احتفظت بذيله بين أصابعي، وطيرته ليدفعه الهواء إلى التحليق، لكنه لم يطِر كما تخيلت. لم يكن الهواء عاصفاً، فتدلى الشال على ظهري ولم يلمس الأرض، فأرجعته حول رقبتي مرة أخرى، وكدت أن أصل إلى نقطتي لولا أن اعترض طريقي شاب مترنح، فحاولت تفاديه، لكنه سقط فجأة أمامي، انحنيت لأراه فوجدته يهذي ويضحك، ومن خلفه مجموعة من أصدقائه، فعبرتهم وتحركت بسرعة. هذا التوقف الصغير جعلني أخسر مقامرتي، كانت ثلاث دقائق وثوانٍ معدودة قد مرت.

ظللت أتمشى حتى وجدتُ مقاعد خالية مخصصة لانتظار الأتوبيسات، فجلست لأرتاح. كانت السماء أمامي ممتدة والنجوم لامعة وصافية، وبدأت العد، ١، ٢، ٣ ... وتذكرت أنني نزلت من البيت لشراء البرتقال، وأن عليّ السير حتى الوصول إلى محل الفاكهاني الذي أضعت الطريق إليه. توقف أتوبيس أمامي في اللحظة نفسها، فركبت، كان خاوياً تقريباً، فاخترت كرسياً جوار الشباك، ثم أخرجت الشال، وبينما تركته يطير في الخارج، أمسكته بيدي. صنع الشال طائرة من القماش، ترفرف عكس اتجاه سير الأتوبيس، وتخمد عندما يتوقف. ظللت هكذا حتى وصلنا المحطة الأخيرة، لم يكن هناك أحد سواي. سألت السائق إن كان سيعاود رحلته عكس الاتجاه، فقال إن ورديته انتهت، وإنه سيذهب إلى الجراج.

فكرت في قطع المسافة مرة أخرى مشياً، ويئست من فكرة

شراء البرتقال، كانت الساعة تقترب من الثانية عشرة. القمر منير في السماء، والجو صاف، وأغلب الدكاكين تغلق أبوابها. قلت لنفسي الأهم أن أعود إلى البيت، فحددت مساراً ليوصلني إلى نقطة انطلاق الأتوبيس.

أخيراً كنت أقترب من شارع يختصر المسافة إلى البيت. درت من شارع ضيق إلى شارع أضيق. يؤنسني صوت المقاهي المتناثرة، كلما فقدت الطريق، توقفت وسألت رواد المكان.

بعد وقت وجدت نفسي أتجول في سوق الأسماك. كان الشارع مظلماً إلا من أعمدة الإنارة الحكومية، وبنات عرس تتجول بحرية، ولا يهمها نباح الكلاب القريب. عندما أصبحت في منتصف الشارع وجدت محل الأنتيكات مفتوحاً، تطل إضاءة خافتة من لمبة صغيرة في الداخل، شجعني عدم وجود الباعة على الاقتراب، وظننت أن الرجل لم يكن موجوداً، فكرة غريبة أن يكون المحل مفتوحاً دون صاحبه، لكنه كان في الداخل يجلس على كرسي من خشب البامبو، ويمدد قدميه على كرسي آخر أمامه، مسترخياً أقرب إلى النوم، بجواره طبق مليء بالبرتقال، لولا السيجارة التي في فمه، لظننت أنه نائم بالفعل، ولفكرت في الدخول بهدوء وفي سحب واحدة، لكنه فتح عينيه بهدوء ونظر ناحيتي، فانشغلتُ بالنظر إلى الدولاب الذهبي الصغير جوار الباب، ظلت نظراته موجهة إليّ، فشعرت بالارتباك وسرت خطوتين جوار المحل. توقفت قليلاً، وتمنيت سماع صوت أغنيته المائية تنبعث من جهازه القديم، أو سماع صوت البرتقالة بين أسنانه، لكن شيئاً لم يغنّ، فتحركت إلى البيت.

## -٥-

ظلت السمكة قابعة تحت طبقها يومين. أرى البقع البيضاء تملأ الجلد الرمادي، والعطب يسير في اللحم حتى تحول إلى اللون الأخضر، بعدها صارت كتلة متماهية الرطوبة، غير محددة المعالم حتى أكلها الدود.

في الصباح أحس بالمرأة خارجة من البيت، وعندما أصحو كل يوم بعد الظهيرة، أجدها داخل المطبخ، تدخن سيجارة رفيعة، والروب الحريري الطويل منزلق على رجلها الهيكلية، تضع رجلاً فوق الأخرى، وتحرك أصابع يدها اليسرى، كأنها تعزف على آلة، تحرك عينيها الغريتين بيني وبين يدها، وجهها هادئ لا يعبأ بالعفن السارح على المنضدة.

يتلاقى وجهانا، تقع عيناي على عينيها، فأتذكر ليلة السرير، هي لم تتكلم مطلقاً عما حدث، أحياناً نفتح حديثاً عابراً عن أشياء بلا معنى، أحياناً تطلب مني أشياء كتنظيف الصالة وغسيل الصحون، وأحياناً تشارك فُرجة التلفزيون.

مرت الأيام الأولى بنعومة. وجدت طبق السمكة ملقى أمام القطط

في الدور السفلي، عشرات القطط كانت تلتف حول وليمة عفنة أمام باب الشقة المهجورة.

كنت أخرج كل يوم للمشي، أقابل بعض المعارف القليلين، كلمت الجميع وأوصيتهم بأي عمل، أتمشى لغرض البحث عن زميل عمل قديم، عن صديقة تجلس في مقهى. نادراً ما حدثت المصادفة، نتلاقى، ويمر الحديث بكلمات مرتبكة تنم على عدم الراحة، أسلم وأرحل بهدوء.

كانت تمشيتي المفضلة في شارع السوق. أتمشى، وأشتري البرتقال. عند الثالثة والنصف تنكسر الشمس، والأشعة الدافئة تتسلل من قطع الخيش المربوطة بعضها بعضاً فوق الباعة، صانعة سقفاً من الألوان. هذا الخيش الذي يعبئون فيه أسماكهم، يصير شمسيات متماسكة حتى تهترئ وتأكلها الشمس. كنت أقف أمام محلي المفضل، أستمع إلى الأغنية الجديدة لصاحب المحل، أهندم نفسي في المرايا البيضاوية، وأستند إلى الحائط المواجه.

بعد تمشيات عديدة، أصبحت أقرب إلى ذوق الرجل القديم، هناك أسطوانتان تعملان بشكل روتيني، أسمهان ومحمد فوزي. يدور صوت أسمهان اللامع، ويتمدد وهو يقول: "إمتى هتعرف إمتى؟ إني بحبك إنت". بعدها يأتي صوت فوزي، ليعطي المكان جواً دافئاً وحميماً. بعدما ينتهي الرجل من الأسطوانتين، يطفئ جهازه مدة وجيزة، ثم يشغل أغنية باللغة الفرنسية، بكلماتها المجهولة لي، وبصوت مغنية مجهولة أيضاً. كنت أنتظر كل يوم حتى تنتهي هذه الأغنية، رغم أنني لا أفهم شيئاً. هناك شيء بديع في الإيقاع الذي تغني

به المرأة، تبدأ أغنيتها بالعزف الهادئ على البيانو، ثم يغني الصوت الأنثوي بإيقاع أقرب إلى القراءة، كأنها تتكلم مع شخص ما، لا تغني أمام الجمهور. من وقت إلى آخر تحرك حنجرتها إلى الأعلى قليلاً، فتصبح كلماتها ممطوطة بهدوء.

كلما سمعت هذه الأغنية، شعرت أن هذه المغنية حزينة. أشعر بنعومة هذا الحزن المجهول يحركني، أتحرك إلى البيت وأنا أسمع دقات البيانو، وصوت آلة آخر تصدر صفيراً كأنها عصفور، أظنها الهارمونيكا أو الفلوت. أنسحب بهدوء إلى البيت، أرى القطط التي تملأ السلم، تموء وتمسح بباب الشقة المغلق، تقترب إحداها بحرص من قدمي، وتنسحب عندما لا أعطيها الاهتمام اللازم، لا يكون معي عادة إلا البرتقال أو الخبز. قشرت برتقالة مرة وألقيتها إليهم، هرولوا إلى الوليمة الخادعة، ثم ابتعدوا عنها، ظننت أن هذه الطريقة ستفهمهم أن بضاعتي لا تصلح لهم، لكنهم كانوا يقتربون بالشغف نفسه ناحيتي كل مرة، ولا يهمهم عبوري غير المبالي ناحيتهم.

أصل الشقة وفي رأسي يلعب صوت المغنية، أحاول تذكر أي كلمة تساعدني في العثور عليها، لكن كلماتها صعبة الوصول إلى أذني بشكل واضح، خاصة مع النطق السريع للمغنية، والنبرة الخالية من الطرب. كنتُ أسمع صوتها يتكرر في أذني، وأرى وجه صاحبة السكن الشاحب، هاتان العينان المسحوبتان، والوجه الغائر، والشعر الأسود الليلي. كانت هذه المرأة بوجهها الباهت ملائمة جداً للصوت المجهول. أصبحت كل يوم أسمع الأغنية، أستند إلى الحائط المواجه

للدكان، وجهي مقسوم في ثلاث مرايا بيضاوات، وشعاع الشمس ينكسر على رأسي، أحاول التدقيق في كلمات الأغنية لألتقط أي حرف واضح، لكنني أنسحب مع الحزن الذي يسيل من الصوت، أدقق فيه لأفهم لماذا المغنية حزينة بهذا القدر، أسمع الصوت الجميل فيأتيني وجه المرأة أمامي وهي تحرك فمها الواسع، فتظهر أسنانها الكبيرة المرصوصة، تقف أمام البوتاجاز بروبها الأصفر المفتوح، تقف في المطبخ الصغير وتحرك أصابعها في الهواء، وتغني. أركّب صوت المغنية على شكل صاحبة السكن، بطريقة ما صارت المرأة هي مغنيتي المجهولة. مغنية صامتة، بوجه وديع.

تتحرك الحروف في أذني، بين السوق والسلم ومطبخ البيت، بين قدم الرجل الممددة على الكرسي، وبين عينيّ المرأة، تتحرك الموسيقا أيضاً، الأوضح هو صوت البيانو والفلوت، مع الوقت صارت هناك لغة ثالثة أستطيع سماعها، هذه الحروف المجهولة أترجمها كما أحب. كنت أسمعها تنبعث من الأسطوانة التي تدور حول إبرة الفونوغراف، رأسي مندمج في الحائط، وفي خيالي تتجسد صورة المرأة، تقف أمام الدكان وتغني، مع عدم فهمي للكلمات اخترعت حكاية وركبتها في الأغنية، يوماً بعد يوم نسيت أنني لا أفهم هذه الكلمات، واقتنعت بحكايتي، وقلت إن هذه الأغنية تحكي عن امرأة تعيش بمفردها وتحب الذهاب إلى السوق وأكل البرتقال، ولديها كلب يدعى نوني، ونوني يحب الخروج في الشمس، وعندما تعلو الموسيقا، أفهم أن هناك تحولاً دراماً حدث، لقد تاه كلبها في السوق، وهي ظلت تبحث عنه حتى الليل، وعندما عادت حزينة

إلى البيت وجدته هناك. تنتهي الأغنية بانتهاء الحكاية، تمط المغنية صوتها ليندمج في صوت الفلوت، فتصدر نغمة واحدة وطويلة.

ذات يوم كنت أقف في المكان نفسه، أتابع صوت المغنية وحولي باعة السمك، الرائحة النتنة صدمت أنفي فجأة، ووجدت صاحب المحل أمامي، مرّ أمامي مباشرةً، نظر ناحيتي بتردد، ثم عاد إلى مكانه، إلى داخل المحل، ظل في مجال رؤيتي بعيداً عن مجال رؤية البائعين، حدق تجاهي، وتأكدت أن النظرة موجهة إلي، ابتسم الرجل ومد يده إلي بعلبة سجائر.

## -٦-

لو أن المغنية تخلت عن بحثها المحموم عن كلبها، لتقابل رجلاً غريباً، وتدخن سيجارة ساعة الظهيرة، لفقدت الأغنية ريتمها الأصيل.

كانت إشارة الرجل بعلبة سجائره خروجاً من الحالة التي أنتظرها كل يوم، وددت الذهاب إلى دكانه ومشاركته السيجارة، لأسأله عن المغنية وعن كلمات الأغنية، أو ليدعوني إلى مشاركته القهوة، أو لأدعوه إلى مشاركتي برتقالة.

كان تحركه مفاجئاً وغريباً، ارتبكتُ من كسر الصورة التي أرسمها كل يوم، ومن المارة والباعة الذين يرونني في هذا التوقيت يومياً، عيناه تحدقان إلى عيني، ويده ممدودة بعلبة السجائر، لوهلة فكرت في تلبية دعوته، لكنني حركت رأسي إلى جانبي كأنني لا أراه، وعندما عدت بوجهي إليه، وجدته واقفاً مكانه ينتظر، فمشيت بعيداً.

كان شعوري أن العالم الذي أبنيه يتهدم فوق دماغي، مشيتي النهارية في السوق، وأغنيات الرجل التي أصبحت أغنياتي، لن أسمعها مجدداً. أستطيع سماع أسمهان ومحمد فوزي من الكمبيوتر، لكنني

كنت أعرف أنني لن أستطيع الوصول إلى الأغنية المجهولة، حتى مع حكايتي المتخيلة عنها.

فكرت في الانقطاع عن الذهاب إلى السوق، وفكرت أنني سأكون حبيسة داخل البيت، أسهر الليالي أتفرج على الأفلام في كمبيوتري، وأنام عندما يطلع الصبح، وأنني سأنتظر كل يوم حتى أشعر بالمرأة وهي تخرج من الباب في السادسة صباحاً، وعندما أصحو بعد العصر، ستكون هي في غرفتها نائمة أو مستلقية. وأنني سأسمع صوت أنفاسها خلف باب غرفتها المغلق دائماً، وعندما تخرج من غفوتها النهارية، يكون الليل قد بدأ، فكرت أنني سأضطرُ إلى الجلوس معها في الصالة، دون كلمة واحدة منها أو مني. وأنني قد أتجرأ وأسألها عن الرجل الذي رأيته معها، أو أسألها لماذا لم يأتِ مرة أخرى. وتشككت في أنني قد أكون السبب في رحيله وعدم مجيئه مرة أخرى. "لا تأتِ، البنت شافتنا"، بالتأكيد قالت له ذلك، وهو لوّح بيده الكبيرة، باليد نفسها التي رفعت فخذيها إلى الأعلى، أستطيع أن أرى رأسه المظلم من الخلف إلى الآن، وسكونه بعد المضاجعة.

هذه الأفكار كانت كفيلة بتراجعي، فعُدتُ إلى مكاني أمام الدكان، وقفت أمام الحائط المقابل أنتظر الرجل ليشغل أغنيته مرة أخرى. الدكان فارغ، والإبرة ساكنة على الفونوغراف، وصورتي فقط تنعكس على المرايا المقابلة.

اقتربت أكثر، ورأيت صورة البيت المقابل تنعكس على الفاترينة الزجاجية، الفاترينة متربة بطريقة لا تُصدّق، وداخلها رُصّت تماثيل

صغيرة، تمثال لامرأة عارية ومعها طفلها الصغير، وتماثيل أخرى لعاشقَين، وهناك تمثال لثلاثة رجال ملتصقين ببعضهم، واحد يضع يديه على عينيه، وآخر يضع يديه على أذنيه، وواحد يضع يديه على فمه. هذه التماثيل التي كانت توضع على مكاتب المديرين في الأفلام القديمة، لا ترى، ولا تسمع، ولا تتكلم. أيضاً رأيت تمثالاً من البرونز لفيل، لفت انتباهي شكل الفيل ووحدته داخل فاترينة مليئة بالبشر المجمدين، وتمنيت اقتناءه.

ظهر الرجل من خلف الزجاج، رأيته يخرج من باب جانبي داخل المحل، وعندما رآني ابتسم، رددت بابتسامة وتجاهلت دعوته السابقة، وسألته عن سعر الفيل، فأجاب: "بـ ٥٠٠ جنيه"، سعر يوازي إيجار السكن لشهر، قلت له شكراً، وهممت بالخروج، لكن الرجل خرج من الدكان وقال: "تعالي"، كانت نبرته غير المهزوزة وصوته الغليظ الهادئ يشي بجدية طلبه. جلس على كرسيه خلف منضدته الصغيرة، ودعاني إلى الجلوس على الكرسي المقابل، فجلست، وشعرتُ بطقطقات خفيفة لخشب البامبو تحتي. مد الرجل يده وشغل جهاز الأغاني، وانطلق صوت المغنية الفرنسية، ساعدني هذا القرب على التقاط كلمة "amour"، أعرف أنها تعني الحب، بالتأكيد كل الأغاني تتحدث عن الحب، من أين أتت فكرتي الغريبة عن الكلب الضائع؟ كان الرجل ينصت باهتمام إلى الأغنية كأنه يسمعها للمرة الأولى، يدقق فيها حتى يفهمها، من وقت إلى آخر ينظر ناحيتي، كأنه يقول: "انظري، انظري كيف هذا الجمال يغني"، كنت أبادله التعجب، كأنني أفهم، هو ينفعل، وأنا أتذكر الكلب نوني،

ومصيره الذي بات مهدداً في هذه الأغنية. عندما مطت المغنية صوتها وسكنت الأسطوانة، نظر الرجل ناحيتي، وسألني إن كنت أود تدخين سيجارة، وقال إنه رآني مرة هناك عند الحائط، وأنا أدخن، قال ذلك ومد يده بالسيجارة فالتقطتها منه، دخنّا معاً، كل واحد منهمك في الدخان الذي يخرج من سيجارته بهدوء. بعد انتهاء السيجارة فكرت في عدم جدوى بقائي، فاستأذنته في الرحيل، وهو سألني معاودة المجيء كلما أمكن.

تركته واتجهت إلى العربة المرصوصة عليها أكوام البرتقال، واشتريت كيلو، وضعه البائع لي في كيس أزرق شفاف. كان الكيس يتأرجح بين يدي وبين الأرض، البرتقالات تتدحرج مع بعضها بعضاً، والشمس دافئة، ورجلي تحثني على السير في هذه اللحظة الناعمة. بعد سيجارة الرجل وصوت المغنية القريب، كل شيء كان منسجماً، والأغنية تتحدث عن الحب، فكان لا بد من تغير تفاصيل حكايتي، هذه المرأة واقعة في الحب "amour"، وهذا الحب يعذبها، وهي خرجت إلى السوق لتشتري برتقالاً لحبيبها، وحبيبها يدعى نوني، وهذا النوني لا يفكر في شراء برتقال لها، لذلك هي حزينة، لكنها لا تملك إلا أن تحبه.

راقتني الحكاية، وقررت العودة إلى الرجل لأستطيع التقاط كلمة أو اثنتين من الأغنية لتتضح الحكاية أكثر، لكن انكسرت اللحظة الرائقة فجأة، وانتابني هاجس قوي أن هذا الرجل بصوته الغليظ الهادئ يريد ممارسة الجنس معي، تحول هذا الهاجس إلى مطرقة ضربت رأسي من الخلف وعرقلت سيري.

هذا مجرد رجل وغد، ككل الحكايات التي سمعتها هنا في القاهرة، هذه الأفعال التي قام بها تؤدي حتماً كما يتصور هو إلى السرير، هذه اللزوجة السائلة أعرفها، والابتسامات المجانية، واللطف الغبي، والملابس المنمقة، موضة السعينات. وملامحه التي تحاول الاقتراب من الملامح الأوروبية، ليصير كما يتوهم رجلاً جذاباً، ولا تستطيع أي امرأة تجاهله. وتخيلت كيف سيؤدي بي الطريق إلى الباب المغلق في دكانه، وأن هذا الباب يؤدي إلى نفق دائري، هناك الحيطان الجيرية مدهونة باللون الأزرق، ولمبة صغيرة صفراء ستدلى من السقف الواطئ. هذه الجدران تكسوها صور نساء عاريات، وممثلات أجنبيات، ونجمات لأفلام البورنو. تخيلت كيف ستكون رائحة الرطوبة تملأ المكان، ورائحة فم الرجل الممتلئة بالسجائر، برمادها الملتصق بين أسنانه الصفراء، ووجهه المثير للغثيان وهو يحاول الاقتراب مني. وفي ذهني حاولت استرجاع صوته، وحركاته، وملامحه داخل دكانه الصغير، وهو يستمع إلى الأغنية بهدوء، لكنني كنت عاجزة عن استعادة الصورة، كل شيء تبخر من دماغي في لحظة.

## -٧-

ظللت أتمشى حتى الليل. تجاوزت الساعة العاشرة مساء. كلما شعرت بالتعب، جلست على رصيف وأكلت برتقالة، لم أعد إلى البيت إلا عندما نفد البرتقال. نور البيت كله كان مطفأً، والمرأة كانت ممددة على الكنبة في الصالة، تاركة النوافذ مفتوحة، ونور العمارات المقابلة ينير هذه العتمة بخفوت.

قلت: "مساء الخير"، لكنني لم أسمع صوتاً يرد، ولم أتبين إن كانت عيناها مفتوحتين أم لا، جسدها كان مسجى، ويدها تتدلى من الكنبة إلى الأرض، وروبها الأصفر الذي لا ترتدي غيره في البيت يعري رجلها، فكرت أن أوقظها لتدخل إلى غرفتها، لكنني تراجعت، ووضعت كرسياً أمام النافذة الكبيرة وجلست أتفرج بالشارع.

تطل نافذة الصالة على الشارع الكبير، يتحول في الليل إلى ملجأ للمتسكعين، أسمع هدير موتورات السيارات المارقة بسرعة، وفي أحيان كثيرة يكون الليل هو الوقت المناسب لمسابقات الدراجات النارية، مثل ذلك اليوم، كانت الدراجات تعبر متجهة إلى الأمام، ثم تعاود الرجوع، وهكذا عشرات المرات. كان هذا يوم الخميس،

يعني أن اليوم التالي هو الجمعة، والبلد كلها في إجازة، لذلك يتحول ليل الخميس إلى حفل كبير. عائلات الكلاب تبدأ في الخروج، وعواؤهم يعلو تدريجياً، وهناك قطط ضخمة تتجول أيضاً. حكى لي زميل العمل السابق أن القطط التي تسكن وسط البلد كلها مولودة في فناء مستشفى القصر العيني، وأن غذاءها هو الحبال السرية للمواليد الجدد، لكن قطط البيت أكثر وداعة من هذه الحكاية الغريبة.

تحول الشارع إلى سيرك، كانت الضحكات الصاخبة تملأ الشوارع، ورائحة التبغ والبيرة تصلني من الأسفل، وسباق الدراجات الصغير بدأ يشتعل. شغّل الجميع في دراجاتهم أغنية موحدة صاخبة، كنوع من الإحماء، وفي ركنٍ من الشارع رأيت جمعاً من الشباب يلتفون حول رجل يشرب الجاز من جركن صغير، وينفثه في الهواء، فيصنع كرات من النار.

كان الجو مشجعاً على التفاعل، أشعلت سيجارة وأنا أطل من النافذة للمشاركة في الحفل، وشعرت بالمرأة تتحرك خلفي وتسعل بقوة، كانت إشارة منها لأطفئ السيجارة، لكنني لم أستجب لها، ودخنت السيجارة حتى النهاية، ثم ألقيتها من النافذة، وتفرجت بنارها وهي تخبو أثناء السقوط، ثم قررت النزول مرة أخرى والانضمام إلى الشارع. ظلت المرأة مكومة على الكنبة، ممددة، ليست نائمة، وليست متيقظة.

لفحني الهواء ورائحة الدخان الكثيف في أثناء نزولي السلم. دخان السجائر ودخان الكرات النارية المشتعلة يملأ الهواء. تمشيت طول الشارع، وتوقفت قليلاً أمام رجل النار، كان يرتدي جاكيتاً على

اللحم دون شيء يستر بطنه المكور أمامه، يؤدي فقرته دون النظر إلى الجميع. أغلب الموجودين كانوا منشغلين عنه بصحبتهم، وهناك مقهى قريب يجلس عليه آخرون. تركت للرجل جنيهاً في الإناء الذي أمامه، وتمنيت الا يلاحظ انني وضعتُ جنيهاً فقط.

ثم تمشيت حتى خرجت من الشارع كله، أخذتني رجلاي إلى السوق، المكان كله كان خاوياً، حتى أعمدة الإنارة الحكومية كلها كانت معطلة، وكما توقعت، كان محل الأنتيكات مفتوحاً، وينبعث منه الضوء. مررت أمامه، وتمنيت أن يلحظني الرجل، مررت بسرعة دون أن أنظر إلى الداخل، وتوقعت أن أسمع صوته ينادي لكنه لم يفعل، ثم عاودت المرور في الاتجاه المعاكس، هذه المرة ألقيت نظرة إلى الداخل، فوجدت الرجل جالساً على كرسيه في مكانه، لم أعرف إن كان قد لمحني أم لا، فقررت الوقوف في بقعتي المفضلة أمام الدكان، أسندت ظهري إلى الحائط وأشعلت سيجارة، وانتظرت أن يناديني الرجل.

بعد وقت يئست، وتحركت ناحيته مباشرة، دخلت الدكان وقلت: "مساء الخير"، فرد بابتسامة واسعة، ودعاني إلى الجلوس، ولم أتردد، كان النور يسقط على وجهه الذي في مواجهتي. حاولت التمعن أكثر في ملامحه لتحديد عمره، وقررت أنه يقع في أواخر الأربعينيات. له شعر بني فيه مساحات رمادية ليست قليلة، شعر ناعم، لكنه خفيف عند مقدمة الرأس، وهو يصففه إلى الخلف، فتظهر جبهته عريضة ولامعة. وجهه كان رقيقاً رغم صوته الغليظ، وحاجباه ليسا كثيفين، لكنهما يغطيان عينيه، أو

بشكل أدق يتدلى حاجباه أعلى جفنيه، وهذا يعطيه نظرة عميقة وهو يتكلم أو يتحرك.

من وقتٍ إلى آخر كان يبتسم لي، يرفع يده ويضعها على رأسه، كنت أرد ابتساماته بابتسامات، لكنه لم يتكلم، وشعرت أنني اخترقت عزلته بمجيئي، ولم أملك الرغبة في الرحيل، تشجعت واستأذنته في تشغيل أغنية في جهازه، فاستجاب، وضع الأسطوانة التي عليها صورة أسمهان، ورأيت وجهها يدور حول الإبرة، وسمعت صوتها يغني: "ليالي الأُنس في فينا"، وضع يده على رأسه، وأنصت إلى الأغنية معي.

بدأت الموسيقا بالرقص، فالس يغني معه الكورال، ثم دخلت أسمهان بصوت لامع تغني عن رنين الكؤوس، ونعيم الروح والعيون. عينا الرجل كانتا تلتمعان مع الصوت، وتساءلت بيني وبين نفسي لماذا غنت أسمهان للّيالي في بلد بعيد، فينا؟! لِمَ لم تغنّي لروما أو لباريس مثلاً، لماذا لم تغني للقاهرة ولياليها؟! رأيت الأسطوانة تدور بقوة، وصورة أسمهان لم تعد واضحة، تدور في دوائر تبرز منها عيونها البراقة بطريقة خاطفة، ظلت تدور حتى صفق الجمهور وهدأت ببطء، واستقرت عينا أسمهان أمامي، قلت لنفسي إنها كانت امرأة غريبة، حتى ملامحها، نظر الرجل ناحيتي وتنهد، وقال: "شفتي؟"

كان سعيداً، ولم أشأ إفساد متعته بكلامي عن ملامح أسمهان الغريبة، أو أغنيتها للّيالي في البلاد البعيدة، فرددت بحماسه نفسه: "نعم، جميلة جداً".

ضحك بشكل غير مبرر، وقال: "تشربي قهوة؟"، فقلت له: "أيوة".

فقام من مكانه، واتجه نحو الباب الذي رأيته يخرج منه داخل الدكان، ترك الباب مفتوحاً، فلمحت هناك كنبة قصيرة، مصنوعة بطريقة الكنب الإسطنبولي، وعليها مفرش مزركش بالورد، وكان الحائط لونه أبيض وليس أزرق. حائط مستقيم ومفرود، وليس نفقاً كما تخيلت.

عاد ووضع أمامي فنجاناً من القهوة، كانت فناجينه تشبه فناجين المرأة، هذه الفناجين كانت موجودة في كل البيوت في الماضي، بيضاء ومرسوم عليها عاشقان مراهقان، روميو وجوليت.

ساد الصمت جلستنا، الشارع هادئ، وأصوات الفئران كانت تأتينا وهي تتسلق البيوت ذاهبة إلى مخابئها. يفعل هذا الرجل كل شيء بهدوء، ينصت إلى الأغاني، ويدخن سيجارته، ويشرب القهوة، يفعل كل شيء، ويعطيه نصيبه بضمير حي. عندما يتكلم، يتوجه ناحيتي بجسده كله، يترك فنجان قهوته، يتوقف عن السمع، أصلاً هو لا يتكلم إلا عندما تتوقف الموسيقا. وأنا كنت أجاريه في طريقته، أشرب عندما يشرب، وأنصت مثله، وأتكلم عندما تتوقف الموسيقا.

انتهى من قهوته، والتفت إليّ وسألني عن عملي، قلت له إنني الآن أبحث عن عمل، وإنني كنت أعمل في السابق في جورنال حكومي، تركته لأنهم سرحوا الكثير من العاملين. لم يعلق، سألني إن كنت أسكن هنا منذ وقت طويل، فحكيت له حكاية سكني الجديد.

هز رأسه وقال: "أيوة أيوة، عارف". استغربت من رده، هل حقاً

كان يعرف، وما الذي كان يعرفه بالضبط، قال ذلك، فسكتُّ، وسألته بدوري عن بيته، فرد أن هذا هو بيته، مشيراً إلى دكانه، فقلت له: "أيوة أيوة، عارفة"، فلم يعلق، ثم عاد الصمت إلى المكان مرة أخرى.

استأذنته في الرحيل، كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، قام معي إلى عتبة المحل، ثم مد يده داخل الفاترينة، وأخرج بروازاً يحيط بصورة امرأة تربط إيشارباً صغيراً على رأسها، وتضع يدها برقة على فمها، وتطل من النافذة، ألوانها تقع بين الأصفر والبني. مسح البرواز المترب بكم قميصه ومد يده ناحيتي، وقال: "هدية".

أخذتها منه وشكرته، كنت سعيدة بها. وهو ظلَّ واقفاً، يشاهدني وأنا أتحرك، كأنني سمعت صوته من الخلف يقول: " أتمنى أن تعاودي المجيء".

# -٨-

في غرفتي سريران، واحدٌ يقطع الآخر، هذا الآخر فوقه نافذة، والنافذة تطل على باحة صغيرة، والباحة فيها دكاكين قديمة.

أحببت النوم على السرير أسفل النافذة، وضعت صورة المرأة – المطلة على الشارع – على إفريز النافذة.

تفتح نصف شباكها، ويظهر النصف المغلق من الشيش في الصورة، تتخلله أشعة الشمس. تقف المرأة في النهار، وجهها في مواجهة الشمس، لكن بزاوية تمكنني من رؤية ملامحها. تضع أصابعها على فمها بِرّقة، ترتدي إيشارباً صغيراً وجلابية بلا أكمام، تنزلق الجلابية على كتفها المواجه عين الفنان الذي رسم، وتضع يدها الأخرى على الشيش، كأنها رأت شيئاً مباغتاً، أو كأنها تنتظر أحداً.

من الممكن تركيب هذه الصورة في صوت المغنية الفرنسية، في حكاياتي المتخيلة عنها، قد تكون هذه هي المغنية وأنا لا أعرف، قد تكون الأغنية تتحدث عن هذه الحبيبة، لأنها تقول "amour"، وهذا يعني الحب، لذلك فهي حبيبة، وتنتظر في بيتها وصول المحبوب، الذي يدعى نوني، ونوني يتأخر، فتقف في النافذة لتغني له.

نحن الآن ثلاث نساء في البيت، أنا، والمرأة صاحبة السَكن، والمرأة في الصورة. هناك أيضاً المغنية، لكنها تتأرجح بين البيت وبين الشارع وبين محل الأنتيكات. وددت لو تشاركنا جميعاً وجبة ساخنة ساعة الظهيرة يوم الجمعة.

عندما صحوتُ، قمت أبحث عن المرأة، وجدتها مستيقظة، الشمس كانت تغرق الصالة وهي ممددة على الأرض ويغمرها الضوء، إلى جوارها فنجان فيه آثار قهوة، وطبق أزرق فارغ مصنوع من الخزف. جلبتُ الصورة الجديدة ووضعتها على منضدة في ركن الصالة، قلت للمرأة إنني أدعوها اليوم إلى وجبة الغداء، ردت ألا داعي للتكلفة، وأنا أصررت، أردتُ كسر حاجز الغربة الذي تنامى بيننا، وسألتها عن أكلها المفضل، فقالت إنها تحب "المسقعة"، أسعدتني استجابتها إلى الدعوة، ولطلبها "المسقعة" بسبب تكلفتها البسيطة.

ارتديتُ ملابسي، وتركتها هي والصورة في البيت، ونزلت إلى السوق لشراء مستلزمات الأكل.

كان يوم الجمعة، وفي أيام الجُمع يصبح الشارع مثل بحيرة راكدة. الصخب الذي كان يوم أمس استكان في أعشاشه. الشباب الذين ملؤوا الشوارع ليل الخميس كأنهم مصاصو دماء عليهم الرحيل لترك النهار لأصحابه. مشيت في هذا الشارع، في هذه البحيرة البيضاء، كنت بفستاني الأزرق الطويل أتمايل بمرح، أمشي في طريق خاوٍ تسير فيه بعض الأجساد في اتجاه معاكس لاتجاهي، أنا إلى الأمام وهم في مواجهتي، أتخطاهم، فيصبحون خلفي سائرين نحو النقطة التي جئت منها، يمشون مخدرين كأنهم سكارى، ظهورهم

محنية بخفة إلى الأمام، وأجسادهم تدبُ ثقيلة على الأرض، حتى السيارات، كانت واقفة، فقط من وقت إلى آخر تمر واحدة جواري، وتحرك موجة صغيرة في الشارع الراكد.

السوق كان فارغاً، ودكاني مغلق أيضاً. فكرت في طرق الباب الحديدي لأوقظ الرجل واشرب معه قهوة، وأطلب منه تشغيل الأغنية، ثم أدعوه إلى وجبة الغداء، المسقعة المنتظرة. وفكرت أن هذا قد لا يروق المرأة، وأن عليّ استئذانها قبل دعوة أحدهم إلى بيتها. استدعى هذا الخاطر لدي صورة رجلها المجهول، هذه الليلة الوحيدة التي رأيت فيها أحداً يزورها، أو على الأدق رأيت رأسه من الخلف، لم أستطع النظر إلى وجهه، ولم أعرف حكايتها معه، ولوهلة جاء في خاطري أن هذا الرجل قد يكون صاحب دكان الأنتيكات، وأنه ناداني لأنه صاحب المرأة ويعرفني، ورده على حكاية السكن بـ"أيوة أيوة، عارف"، وفكرت أن أنسب حل للتأكد من شكوكي هو دعوة الرجل إلى الغداء ومواجهته بالمرأة، حتى أستطيع رؤية تعبيراتهم وردود أفعالهم مباشرة.

قررت الذهاب لشراء مستلزمات الأكل والرجوع لاحقاً. كان هناك محل للخضراوات، يفترش صاحبه خضار أمس الذابل. انتقيت مستلزمات المسقعة من خضار كان أغلبه مريضاً ومتيساً. اعتمدت على وجود الزيت والثوم في مطبخ المرأة.

في طريقي إلى البيت عُدت مرة أخرى إلى الدكان، وطرقت الباب بقوة، لكن لم يرد أحد علي. فكرت في سؤال المرأة عن الرجل بكل بساطة، أسألها: "هل الرجل صاحب دكان الأنتيكات في السوق هو

صاحبك؟"، فترتبك، فأعرف أنه هو وخلصنا.

انتظرت الرجل أمام الدكان حتى يفتح أبوابه، لأصر على اصطحابه معي إلى البيت، انتظرت دقائق، ثم نفضت الفكرة كلها من دماغي ومشيت.

في أثناء صعودي السلم، رأيت باب الشقة المغلقة في الطابق الأسفل مفتوحاً، وأمامه كرسيان وسجاد مطوي على الأرض، وكانت هناك ملابس معلقة بمسامير في الواجهة. سمعت صوت أقدام تتحرك، ورأيت القطط تقف متأهبة أمام الباب.

عندما صعدت، قلت للمرأة ما رأيته، فقالت إن صاحبة هذه الشقة كانت مسافرة منذ شهور، وعادت الآن، ثم تحركت معي إلى المطبخ. كانت تلم شعرها صانعة طوقاً صغيراً في منتصف رأسها، حتى الروب الأصفر تخلت عنه، وارتدت جلابية قصيرة بيضاء منقوشة بوردٍ أزرق منمنم. بدت في هذا المظهر أصغر، تراجع عمرها من أواسط الأربعينيات إلى أواخر الثلاثينيات، كانت تتحرك بخفة ونعومة، استشعرت أنها سعيدة بدعوتي. تمشي في الممر الأبيض الطويل للبيت، أنا أمامها بفستاني وهي تبعني بتناغم. جلبتُ البرواز - بداخله صورة المرأة التي تطل من الشباك - معي، ووضعته على المنضدة الخشبية للمطبخ الصغير، جلستُ وجلسَت المرأة في الجهة الأخرى من المنضدة في مواجهتي، أنا أقطع الباذنجان لشرائح، وهي تقصص الثوم.

قلت لها إنني أيضاً أحب المسقعة، وإنني بارعة في طبخها، فابتسمت، تشجعت وسألتها عن عملها، ترددت قليلاً في الإجابة، ثم

قالت إنها تعمل موظفة، لم أفهم ما الذي تعنيه هذه المهنة، فسألتها: "موظفة؟!"، فقالت: "في هيئة حكومية". ألححت بالسؤال: "أي هيئة يعني؟"، شعرت بنظرتها تزوغ، وأجابت على مضض: "كله شبه بعضه".

شعرت بتململها من أسئلتي، فتوقفت عن الكلام، وانشغلت بقلي الباذنجان في الزيت، وإعداد صلصة الطماطم التي ملأت رائحتها البيت.

المرأة تركتني وخرجت من المطبخ، خرجتُ خلفها لأسألها عن وجود راديو أو كاسيت أشغله في أثناء الطبخ، كانت في مكانها الأول، ممددة على الأرض، وجهها مظلم، ويدها تتحرك كالسابق، كأنها تلعب على بيانو، ردت عليّ باقتضاب: "لا"، وعادت بنظرة ساهمة إلى النافذة، فتركتها، ورجعت إلى طبختي، خلطت الباذنجان والفلفل المقلي في الصلصة، انتقيت طبقين منقوشين بالأزهار البرتقالية، وغرفت طبقاً للمرأة، وواحداً لي، وضعتهما على صينية وخرجت إلى الصالة، فوجدتها نائمة مكانها.

أيقظتها بخفة، فتمددت بكسل إلى الأمام، ثم قامت وأحضرت جورنالاً قديماً وافترشت به الأرض، أحضرت أنا صورة المرأة المطلة من النافذة، ووضعتها جواري، وحاولت استحضار صوت المغنية المجهولة في دماغي، إنها تنتظر محبوبها، وتقول له: "amour"، كلنا كنا مجتمعات، أربع نسوة، لكن المرأة لا تعرف وجود المغنية، ولا المرأة صاحبة الصورة في دماغي، وشعرت بسعادة صغيرة تملؤني. أكلت من طبقي وهو على الأرض مكانه،

غمست الباذنجان في الخبز وأكلت، عكس المرأة التي أمسكت طبقها في يدها، أكلت بالملعقة بهوادة، كانت تأكل المسقعة بالطريقة نفسها التي تأكل بها الأرز، وجبتها اليومية المعتادة، لكنها أكلت طبقها كله، ثم أخذت الأطباق ووضعتهم في الحوض، أتت بعلبة سجائرها، وعزمتني على سيجارة، ودخنّا معاً. دار في بالي أن أسألها عن الرجل صاحبها، بما أننا في ساعة صفا، هذا الرأس المجهول الذي كانت تضاجعه في ليلتي الأولى في البيت، وعن لا مبالاتها بالأمر، هذه اللا مبالاة لرؤيتي لهما تشعرني أنني رأيت كل هذا داخل الحلم، وأنني صنعت هذه الحكاية في مناماتي، لم أصدق إلا صوتها الذي كان متألماً، صوتها هو الحقيقة في كل ما أتذكره. أرى فمها وهو يتكلم، فيتحرك دماغي ناحية الذكرى للّيلة الغريبة، كنت أتسمّر أمام باب الغرفة، أشاهد ما يحدث، سمعتها بوضوح، وسمعت صوتها الممطوط وهي تتحدث معي هنا بعد الغداء، تتكلم أمامي، وتنفث دخان سيجارتها، فيتسع فمها أكثر، شكلها بات صغيراً فعلاً في مظهرها الجديد، ظلت تحكي عن البيت، قالت إنها تفضل وضع شجيرات صغيرة أمام النوافذ لتعطي مظهراً مريحاً لولا خوفها من ذبولها في الشتاء. كنا نجلس متجاورتين قبالة النافذة، وجهها أمام وجهي، وضعَت هي مخدة وتمددت بأريحية وظلت تتكلم.

أمسكتُ صورة المرأة – المطلة من النافذة – التي وضعتها على الأرض، ووضعتها أمام عيني المرأة التي كانت ممددة ووجهها إلى الأعلى، أصبحت الصورة بين عينيها وبين السقف العالي، وقلت

لها: "شوفي اشتريتها من دكان التحف في السوق القريب". ابتسمت نصف ابتسامة وقالت: "حلوة".

لم أشعر في إجابتها بالارتباك الذي كنت أنتظره في عينيها، فسألتها مباشرة: "تعرفي صاحب الدكان؟"، فردت دون تردد: "مشفتش دكاكين في السوق". قلت لها: "دكان صغير وسط السوق". فردت: "يمكن".

وددت لو قلت لها إنني رأيتها هناك أمام المرايا، كانت تضع يدها فوق رأسها، وترتدي بنطلوناً وقميصاً أسودين، رأيتها وهي تهندم نفسها أمام المرايا.

لم أفهم طريقتها الملوعة في الكلام، هذا الإنكار الذي ليس له معنى، لكنني ابتسمت، وقلت لها: "خديها، خدي الصورة، هدية". "لا، شكراً".

شعرت أنها لا تريد الصورة لأنها من الرجل، وزاد هاجسي وجود علاقة تربطهما معاً، أصررت على أن تأخذها، لكنها رفضت بقوة، أردت أن أقول لها: "طيب، خذيها وأهديها لصاحبك". وددت جرها للحديث عنه، لكنني لم أستطع، وشعرت بالاستياء يعلو وجهها بعد إصراري على أخذ الهدية. كانت الشمس قد انسحبت بأكملها من البيت، والليل على وشك المجيء في السماء المطلة علينا من النافذة. ساد الصمت مرة أخرى بيننا، أنا ظللت مكاني جالسة قبالة وجهها، أنتظر مبادرة منها للحديث مجدداً، لكنها لم تتكلم، أغمَضَت عينيها لدقائق، ثم انسحبت دون كلمة إلى غرفتها.

جلستُ مكاني أنتظر خروجها، لكنها لم تخرج، كان انتظاراً مُرّاً،

شعرت به في حلقي، المرارة السوداء غطت كل شيء في داخلي، ثم خرجت لتكسو البيت كله بالظلام، لم يكن لدي القدرة على المثابرة لمقاومة العتمة وعلى القيام للضغط على زرّ الإضاءة. تركتني المرأة وحيدة في الصالة، ودخلت إلى مخبئها، تركَت صورة المرأة المطلة من النافذة ملقاة مكانها، رفضت هديتي بقلة ذوق، ولم تبالي بوحدتي هنا.

من النافذة كان الظلام يمتد ويوغل، حتى أنوار الشارع كلها كانت مطفأة، لم يكن غير القمر المتصف هو الذي يضيء المكان. كان هناك نسيم خفيف يأتي من الخارج، فتمددت على الأرض، ووضعت رأسي على مخدة المرأة، رأسي يلامس مكان رأسها الذي كان في المكان نفسه. شعرت بدفء المخدة، رقدت على جنبي، فأصبحت الصورة داخل البرواز أمام عيني، يظهر منها في الظلام كتف المرأة الأصفر فقط. قلبت الصورة على ظهرها، وأدرت جسدي إلى الاتجاه الآخر، غصت برأسي في المخدة أكثر، وأغمضت عيني. كنت أشعر بالخزي الشديد، وبالوحدة أكثر من أي وقتٍ مضى، زاد على إحساسي الوحدة التي تتسع وتبتلعني في هذا البيت، كأنني دخلت إلى صورة فوتوغرافية في برواز أكبر من حجمي بكثير، كنت أقف في منتصفه، فأبدو مثل نقطة صغيرة في فراغ شاسع، فلا تظهر معالمي، كأنني ذرة تراب تعلق في منتصف البرواز، شعرت أنني لن أستطيع الخروج من هذا البرواز أبداً، كلما تحركت إلى الأمام، أرى نفسي أمشي في المكان. قدماي تتحركان في موضعهما، كأنني صورة ثابتة في مكانها، ومتحركة في الوقت نفسه، لا سبيل إلى

الخروج إلى الأمام. كلما مشيت إلى أحد الجوانب، اصطدمت بالإطار. كنتُ أتمشى في مكاني، أقف في ركن الصورة، وفي ركنها الآخر، لم أتخطَّ صورتي، ولم أستطع جلب أحدهم ليكوِّن معي كتلة، لتصبح لها القدرة على الوجود، لتصبح لها قوة أن تُرَى.

## - ٩ -

خرجت من البيت، أخذت ما تبقى من المـقعة، ولففتها في كيس، وألقيتها إلى كلاب الشارع. الشارع بدأ بالامتلاء بكائناته الليلية مرة أخرى، دون صخب كبير كليل الخميس، هناك امتلاء متمهل وناعم. تمشيت من البيت حتى وسط البلد، مسافة محطة بالأتوبيس، قطعتها بقدميّ، وتجنبت المرور من السوق حتى لا أرى رجل الدكان.

وصلت حتى شارع طلعت حرب، ورأيت المانيكانات الباهتة خلف الفاترينات، أجسادهم البلاستيكية لامعة تحت الأضواء المبهرة. وقفت أمام فاترينة بعينها، تلبس فيها المانيكان فستاناً مماثلاً للذي ألبسه. هي نحيفة جداً، والفستان ملموم على جسدها ليظهر جماله. وقفت أمامها، أنا أمام الزجاج، وهي خلفه، صارت صورتي منعكسة على جسدها النحيل، ترتدي فستاناً أزرق طويلاً، وأنا أيضاً. شفطت بطني إلى الداخل حتى أشبهها لو قليلاً. أخرجت موبايلي والتقطت صورة لصورتي المنعكسة على وجه المانيكان. في الحقيقة التقطتُ عدة صور، أغراني الشارع بأضوائه الحمراء بالتقاط صور أخرى للفاترينات والمارة.

مشيت بلا هدف محدد، أخذتني قدماي إلى مقهى كنت أجلس فيه بانتظام منذ سنوات في أثناء عملي في هذه المنطقة، اتخذت مكاناً مريحاً في ركن المقهى وجلست، ورحت أتفرج على الصور التي التقطتها، كان أغلبها مهزوزاً. صورتي مع المانيكان كانت جميلة، هناك إضاءة صفراء تقع على الزجاج، ظلي يظهر على جسد المانيكان، وهناك ظل امرأة أخرى على الحائط جوار الفاترينة. كبّرت الصورة لأرى ملامحي المموهة على الزجاج، أكبّرها فأرى العينين باهتتين، وأصغّرها مرة أخرى فأتراجع كظلٍ على زجاج.

من مكاني لمحت أحد المعارف يجلس خارج باب المقهى، فأدرت وجهي، عدلت جلستي ناحية الحائط وشربت قهوتي بسرعة، ليتسنى لي الرحيل قبل أن يراني، لكنه رآني بالفعل عند باب المقهى، واندفع خلفي بغرابة، واضعاً يده على كتفي، لأستدير ناحيته، لم يكن هناك بد من الاستدارة والابتسام، كان يتكلم بسرعة وبصوت عالٍ كأنه سيبتلعني، لم أدرك أي شيء من كلامه، كنت أبتسم وأهز رأسي رغم كل شيء، ثم مد يده إليّ بكارت صغير، فيه دعوة ما لحضور فيلم في المركز الثقافي الألماني، فهززت رأسي أيضاً وابتسمت وشكرته.

وضعت الكارت في جيبي، حاولت السير متجنبة شوارع البلد الرئيسية، درت في كل الطرق الجانبية التي أعرفها هناك، وكنت أبحث عن فاكهاني لأشتري البرتقال، ظللت أتمشى حتى وصلت إلى البيت، لكنني فقدت الرغبة في الطلوع، وفكرت في الذهاب إلى السوق والتحدث مع الرجل، لكن شعوري بتواطئه مع المرأة

عليّ جعلني أنفر منهما معاً، فتمشيت إلى أول السوق حتى وجدت صاحب عربة البرتقال، كان يضع لمبة فلورست صفراء على حافة العربة، وتراص تحتها حبات البرتقال اللامعة، وزن لي الرجل كيلو من البرتقال، ووضعه في كيس أزرق شفاف، أخرجت له النقود من جيب البنطلون، وأخرجت كارت دعوة الفيلم. أخذت الكيس، أرجحته بين يديّ، واخترت رصيفاً عالياً في شارع هادئ وقريب وجلست عليه، وضعت البرتقال جواري، انتقيتُ واحدة وقشرتها بأظفاري، أكلتها واعتصرتها بين أسناني وأنا أتأمل الكارت، سقطت عصارة البرتقال عليه، بالتحديد على جلابية نوم ترتديها بنت صغيرة، كانت تنظر بعيداً ولا تواجه الكاميرا بعينيها، خلف البنت تقف امرأة تهندم شعرها، امرأة فائقة الجمال، بالتأكيد هذه أمها، وبالتأكيد هي تنتمي إلى المكان الذي تصبح فيه الأمهات جميلات وصغيرات، ولهن قصص حب سرية، كان للأم شعر برتقالي وكبير، ترفعه فوق رأسها مثل تل صغير، وكان الضوء الذي ينعكس على وجهها مع ابنتها يعطي نوعاً من القُرب والدفء، مددت يدي إليهما بفص برتقال، لكنهما لم تأكلا معي، فعصرت البرتقال بفمي وبصقت العصارة على الكارت، فتلطخ وجهاهما، شممت الكارت وأعجبتني رائحة البرتقال مختلطة بالورق فيه. عندما انتهيت من الأكل، برمت الكارت ووضعته في جيبي مرة أخرى.

كان تفكيري في العودة إلى البيت يصيبني بالغثيان، فقررت أن أستمر بالتجول في الشارع. الشوارع كلها كانت متسعة، والأضواء مبهرة كأنها ستصيب الإنسان بالعمى. أدركت أنني

كنت أتمايل من التعب، وكيس البرتقال يتأرجح بين يديّ. درت مرة أخرى حتى وصلت إلى شارع المقهى الذي كنت فيه، قربه هناك دار سينما صغيرة تعرض أفلاماً عالمية، بابها أزرق وقصير، يشبه أبواب البيوت في الريف، على الحائط علقت ثلاثة إعلانات كبيرة لثلاثة أفلام، لم أجد صورة البنت والمرأة التي تهندم شعرها معهم، شدني إعلان لفيلم أوروبي، يظهر فيه وجه فتاة يملأ الصورة، وتنعكس إضاءة حمراء على نصف وجهها، وإضاءة زرقاء على النصف الآخر، فقررت مشاهدته. قطعت تذكرة وركنت ظهري إلى أحد حيطان البهو داخل السينما، بانتظار فتح قاعة العرض. كانت هذه هي الحفلة الأخيرة لليوم، لذلك لم يكن هناك الكثير في المكان، تناثر بعض الرجال، كانوا وحيدين مثلي، عدا شاب وفتاتين يجلسون حول المنضدة الصغيرة أمام الكافيتريا، لفتوا انتباهي لأنهم كانوا يحدقون ناحيتي ويضحكون بصوت عالٍ، أدير وجهي عنهم، وأحاول تسلية الوقت بالنظر إلى أفيش قديم، تظهر فيه ليلى مراد وهي تقف وسط الشارع بفستانها الأبيض وابتسامتها الواسعة، لكن كلما عدت بنظري ناحيتهم، وجدتهم ينظرون إلي ويضحكون، لم أدر وجهي بعد ناحية الباب، حتى وجدت إحدى الفتاتين تقوم من مكانها وتتجه مباشرة نحوي، وقفت أمامي وهي تضحك، حاولت تجاهلها، لكنها أشارت إلى كيس البرتقال، وقالت: "ممكن واحدة؟"

أُخذت قليلاً بجرأتها، لكنني رددت: "آه، اتفضلي".

أخذتها دون كلمة شكر، واستدارت نحو أصحابها، رأيتهم

يقشرون البرتقالة بالتبادل، ثم قسموها إلى ثلاثة أقسام وأكلوها. من وقتٍ إلى آخر كانوا ينظرون ناحيتي ويبتسمون.

بعدها، دخل الجميع من البهو إلى صالة العرض الكبيرة، هممت بالجلوس في المقعد الخلفي، لكن الفتاة التي أخذت البرتقالة نادتني، وقالت إنها حجزت لي مقعداً جوارهم، فاتجهت بهدوء ناحيتهم، أجلسوني آخر كرسي في الداخل. كان الشاب يجلس في المنتصف، والفتاتان جواره، واحدة يمينه، وواحدة يساره، وأنا جلست جوارهم ووضعت كيس البرتقال في حِجري، تلاقت عيناي بعيني الفتاة التي جواري، فابتسمَت وهزّت رأسها، ودون كلمة التقطَت كيس البرتقال من حِجري، ووزعت البرتقالات فيه علينا، كل واحد منا كانت هناك برتقالة من نصيبه. بدأ الفيلم ونحن نأكل، يلقون القشر تحت أرجلهم فأقلدهم، بعدها استكانوا منتبهين إلى الصور في الشاشة. بينما الشاب يمسك يد فتاة، كانت الفتاة في الناحية الأخرى تضع رأسها على كتفه.

بدأ الفيلم ببنت تتجول على دراجة في الليل، بعدها دخلت إلى كازينو صغير. كانت الموسيقا صاخبة، والأنوار تنعكس على وجهها الصغير، بعد ذلك لم أرَ شيئاً، لأنني نمت من شدة التعب والإرهاق.

أيقظتني الفتاة عند نهاية الفيلم، كانت الأنوار تغطي الصالة، وتغطي وجوه الثلاثة الواقفين أمامي، يضحكون بصوت عالٍ، والفتاة تهزني بعنف، فتحت عيني بأكملها، فجرتني الفتاة من يدي خلفها، وقالت: "تعالي معانا نشرب بيرة".

الشارع الذي قطعناه من السينما إلى البار كان أضواء كبيرة محشورة في عيني. يدي مستسلمة لأياديهم التي تحيط بي، فجأة وجدت نفسي مع ثلاثة أشخاص لا أعرفهم جالسين في بار، في مكان صغير وعائلي بدرجة كبيرة، وهذا خلق جواً حميماً للجلسة. اختار الشاب منضدة جوار بلكونة تطل على شارع طلعت حرب، جلسنا في دائرة مكتملة حول المنضدة، أنا في مواجهة الشاب، والفتاتان في مواجهة بعضهما بعضاً. كانوا يتحدثون إليّ كأنني صديقتهم المقربة الرابعة، يرفعون زجاجات البيرة ويحيّون بعضهم، فأقلدهم. عيونهم تلمع وهم يتحدثون، يتكلمون عن الفيلم، ويقولون إنه كان مؤثراً إلى الدرجة التي أبكت كل من في الصالة، كنت أجلس بينهم كأنني قطعة تجسد البطء، حركتهم سريعة، وأياديهم، وأفواههم، وألسنتهم، حتى صمتهم كان سريعاً، حركتي لم تكن على الإيقاع نفسه، كأنني خلفهم بخطوات، وهذا أشعرني أنني أشاهد نفسي داخل شاشة. كانت عيناي في الركن المظلم آخر البار، وكنتُ أراني جالسة مع ثلاثة شباب في دائرة مكتملة حول منضدة، نشرب البيرة، يضحكون، فأضحك، يصمتون، فأصمت، لم يسألوا عن أي شيء يخصني. كنت أنسحب من وقتٍ إلى آخر لأتفرج بنا من بعيد، أنسحب إلى الداخل، فتتركني عيناي وتحلقان في المكان، تحدقان إلى عيونهم، وإلى وجوههم المرتعشة من النشوة. ثم تعودان إليّ مرة أخرى، فأشعر بالبطء من جديد كأنني أغفو، أو أطفو فوق سطح المكان، طفوتُ فوق جسدي نفسه.

فجأة شعرت بالرغبة الملحة في النوم، فقلت لهم إنني لا بد أن

أرحل، تجاوزت الساعة الثانية صباحاً، سحب الشاب تليفوني من المنضدة واتصل بتليفونه، ثم قال إنهم يسكنون قريباً من شارع طلعت حرب، في أستوديو صغير، وإنهم سينتظرونني لنقيم حفلاً معاً، رددت: "طبعاً، طبعاً". ثم قبلوني جميعاً واحتضنوني بالتبادل بقوة.

## -١٠-

فتحت عيني على نور الصباح المشع، كنت ممددة على سريري والنوافذ مفتوحة، سمعتُ أصوات الغربان التي تسكن الشجرة تحت البيت، كانت تعلو بالنعيق ثم تختفي، وتفسح المجال لصوت العصافير الذي يأتي من المنور، والهواء كان يحرك درفات الشيش، يفتحها بقوة ثم يغلقها بعنف. أتتني أصوات النوافذ في الصالة مختلطة بصوت الكلاكسات في الشارع. كان السكون الذي يحط على البيت يصلني، ويوصل معه كل صوت دقيق.

قمت من مكاني أترنح، حاولت تذكر ليلة أمس، فتعثرت بصور للشباب الثلاثة والأضواء الحمراء. ضوء الشمس يعاكس عيني، يشرق في دماغي، فيعيد عليّ تفاصيل من أمس. تحركت إلى الطرقة الطويلة مستندة إلى الحائط، محاولة تجنب السقوط. جلست قليلاً في المطبخ حتى استعدت توازني، ثم تحركت إلى الصالة، مررت بباب غرفة المرأة ووجدته مغلقاً، والصالة فارغة، والنوافذ مفتوحة، والهواء شدّ الستارة إلى الخارج فظلت معلقة بين الحامل وبين الشارع، ترفرف كأنها طائر كبير، قد تكون هي من أرعبت الغربان

وجعلتهم ينعقون ويحلقون بعيداً. أعجبني طيرانها إلى الخارج فتركتها تحلق، وجلست في بقعة شمس، كانت تغطي جزءاً صغيراً في الركن، مكان الصورة التي تركتها يوم أمس، كانت مقلوبة كما هي، عدلتها لتجلس معي في الشمس، وانكمشت أكثر داخل البقعة حتى تسعنا معاً، لكن بقعة الشمس انكمشت حتى تلاشت، والشارع هدأ تماماً.

المرأة لم تخرج من مكانها حتى هذا الوقت المتأخر من النهار، قمت أنا وصورتي لأبحث عن بقعة أخرى من الشمس في البيت. في غرفتي انحسرت الشمس كثيراً، فجلست على السرير لأشعر بدفء الشمس الغاربة، ثم قررت النزول لأتمشى في الشارع، كان الشارع نظيفاً ومتسعاً، وتغمره الشمس في الأسفل. من النافذة رأيت الأجساد التي كانت منومة أمس بدأت بالاستفاقة، تمشي مصلوبة الحيل، وكذا شخص يرتدي الأبيض، حتى الشارع تحول إلى البياض بنظافته، أنا أيضاً قررت ارتداء تيشيرت أبيض فضفاض مثلهم، حتى لا أكسر التناغم الذي أراه.

كنت هادئة، وكأن صخب أمس أفرغ شحنتي من التعاسة التي ملأتني. كنت أتمشى وأحاول استعادة صوت المغنية الجميل ورقتها، وعذوبة الصوت الذي لا يصرخ، الذي يحاول أن يشرح فقط، مجرد تحريك الفم بهدوء، والقول ببساطة، هذا كافٍ للألم الذي تعيشه، لا أفهم سوى "amour"، ونوني هذا المحبوب الذي اخترعته وألبسته حكاياتي، لماذا تركها هذا النوني وجعلها تغني بكل هذا الأسى والصدق. كل ما كنت أريده أن أعرفها وأراها وهي تغني. فقدت

قدرتي على استعادة شكل المرأة صاحبة المكن وتركيبها في صوت المغنية، فلا يمكن أن تكون مغنيتي بكل هذا البرود، أظنها أقرب إلى صورة المرأة المرسومة داخل البرواز والمطلة من النافذة، بهذه الحركة العفوية ليدها على فمها، وبجمالها المرئي وغير المكشوف في الوقت نفسه. تسير الأغنية في دماغي، وأنا أسير في الشارع، والستارة ترفرف خارج النافذة في الأعلى.

لم أتجول طويلاً، توقفت عند محل بقالة صغير، اشتريت كيلو من اللبن وعدت إلى طريقي من جديد.

أفتقد روتيني اليومي، يوحشني الوقوف أمام دكان الأنتيكات وسماع الأغاني. لو أن الرجل لم يكسر هذه المسافة، لماذا لم يحافظ على الصمت والتواطؤ بيننا؟ شعرت أنني شجعته بسلبيتي، ثم باستجابتي، كنت أتذكره وأتذكر صورة صاحب المرأة، لم أستطع في ذاكرتي فصل أحدهما عن الآخر. هناك شكٌ في داخلي أنهما الرجل نفسه، وهذا أشعرني بتعاسة، لأنه عرفني من أجل المرأة وليس من أجلي.

حاولت استعادة ملامحه، ونظرة عينيه العميقتين، وجبهته العريضة، وشعره المنحسر قليلاً إلى الخلف. شيء فيه طيب، أو إن هذا هو شعوري البعيد عن الحقيقة. رأس صاحب المرأة لم يظهر من الأمام، رأيته من الخلف بلا تدقيق حقيقي، كانت عيناي تركزان على المرأة، على همهمتها المتقطعة. زادتني هذه الأفكار رغبة في سماع الأغنية، وقررت أنني سأعود حتماً من أجلها.

في أثناء صعود السلم لم أجد القطط، كلها اختفت أمام الشقة التي

أتت صاحبتها من السفر، حتى أمام شقتنا لم ألمح أي واحدة تموء في مخبأ أو ركن.

في الداخل البيت ما زال صامتاً، الدرفتان تتحركان أهدأ من السابق، فتصدر أزيزاً خفيفاً، والستارة استكانت في الخارج، غرفة المرأة مغلقة كما هي، والمرأة نفسها لم تخرج. شعرت أنها لا تريد رؤيتي بعد يوم أمس، لم أستطع فهم تصرفاتها، وشعرت بأذى من تجاهلها، فقررت إلقاءها من تفكيري.

دخلت المطبخ وانتقيت حلة صغيرة لأغلي فيها اللبن، لكنه فار وأغرق البوتاجاز، وترك رائحة شياط عليه، فملأت الشقة كلها. أشعرتني الرائحة بالراحة، فجلست لآكل في المطبخ، واستعرت من حاجات المرأة رغيفاً، أكلته على مهل أثناء شرب اللبن الساخن. انتهيت وخرجت إلى الصالة مرة أخرى، ولم تخرج المرأة. فمي جف بسبب عدم الكلام، وقلت سأناديها، أطرق الباب وأسألها أي كلمة تبل ريق الصمت الذي ألوكه منذ الصباح، لكنني لم أفعل، واتصلت بشباب أمس، لم يرد أحد على التليفون، وشعرت أنه لا مفر من النزول إلى السوق.

نزلت ووقفت هناك في مكاني أمام الدكان، وكان في داخلي إصرار على عدم التجاوب مع دعوات الرجل إلى الدخول. رأيته وهو يجلس على كرسيه، ظهره محني ومنكّب على تنظيف شيء في يده، لم يلحظ وجودي في البداية، لكنه وضع الشيء الذي بين يديه على المنضدة وتحرك من مكانه، فرآني. لاحظت أن الذي بين يديه كان كاميرا صغيرة من نوعية الكاميرات القديمة، التي تلتقط صوراً

بتقنية الأفلام. لمحني الرجل عندما قام، فتحرك قليلاً وأصبح أمام باب الدكان، نظر ناحيتي وابتسم، رددت أيضاً بابتسامة، لكنني لم أتحرك من مكاني، أظن أنه فهم أنني لا أريد الدخول، ورأيته يختفي ناحية بابه الداخلي، ثم خرج ووضع فنجانين على المنضدة الصغيرة، وأخذ يعدل وضعية الكرسي الذي أمامه ليصبح في مواجهته. فهمت من إشاراته أنه يدعوني إلى الدخول على طريقته، لكنني لم أتجاوب، فجلس على كرسيه مرة أخرى، ينظر ناحيتي ويبتسم. أمسك الكاميرا بين يديه وكان ينظفها بقطعة قماش، ومن وقت إلى آخر يطل ناحيتي ويبتسم، عندما يئس من دخولي، وقف مرة أخرى وتحرك ناحية الفونوغراف، شغل أغانيه، وعرفت أنه فهم بالضبط ما كنت أريده.

انتظرت دور أغنيتي المفضلة، لكن بعد انتهاء أغاني أسمهان وفوزي، لم يضع الرجل الأسطوانة المنتظرة، ووقف مرة أخرى ينظر ناحيتي، كأنه يتحداني، في هذه اللحظة فهمت أنه يعرف سري مع الأغنية المجهولة، لذلك كان يعاقبني بعدم تشغيلها، ظل يحدق إليّ وقتاً، وأنا رفضت التزحزح عن مكاني، كنت أتحداه أيضاً، وتوقعت أنه سيعود إلى كرسيه ويتجاهلني تماماً، لكنه لم يفعل. أمسك كاميراته الصغيرة التي كان ينظفها قبل قليل، وبدأ بالتقاط الصور، كان يصورني، وهذا ما لم أدركه فوراً.

اهتز قلبي لتحركاته، بل إن جسدي كله اهتز، عيني في مواجهة الكاميرا، وجسدي كأنه سائل على الرصيف. تحرك الرجل قليلاً ليضبط كاميراته، وخرج إلى عتبة الدكان وداس على الزر، أسندت رأسي إلى الوراء إلى الحائط، كنت أشعر أنني سأتفاجأ به وهو يسقط

مني على الأرض، فأصبح بلا رأس، حاولت التشبث بيدي، أمسكت بها بياض البلوزة، ودست بقدمي على الأرض حتى تشنجت، ورأيت عين الرجل العميقة خلف عدسة الكاميرا، كان يصوب بحرص كأنه يقتلني، وكأنني على حافة الموت، فقدت قدرتي على الحركة، وعلى التفكير، ذهني منصب أمامي على تلك اللحظة، لم أستطع حتى طلب التوقف. كان كل شيء يدور، الأرض، وقلبي، ورأسي، لم أعِ بالضبط ما حدث، كنت أقرب إلى رجل سكران وجد نفسه في منزل غير منزله، يلمع صوت الكاميرا، فأشعر بالضوء ياغت عينيّ، أغمضهما بسرعة، فيرفع الرجل كاميراته، ويحاول مرة أخرى، بعدما أستكين.

انتهت تلك اللحظة عندما سمعت صوت المغنية وهو ينطلق، أدركت أن الرجل عاد إلى مكانه، يجلس على كرسيه، ويحرك الفنجانين، وينصت برهافة إلى الأغنية، نظر إليّ وهو يحرك الكرسي، ثم أخرج سيجارة وأشعلها، كان يكرر دعوته بإصرار، وكان ما حدث كافياً لتفتيت عنادي.

تحركت ببطء ناحية الدكان، شعرت أن رجليّ ترتعشان، وطرقت الباب، فقال: "اتفضلي".

كان يبتسم ابتسامات تدل على الانتصار، وأفسح لي المجال للجلوس، ثم تركني ودخل إلى مكانه خلف الباب، بعدها رجع بكنكة قهوة وكوب ماء ناولني إياه، ثم وقف يدندن مع الأغنية وهو يصب القهوة في الفناجين. وضع علبة سجائره بيني وبينه، وسحب واحدة، كان يدخن بشراهة، يمسك سيجارته بيد، ويضع يده الأخرى على الكاميرا فوق المنضدة التي نقلها إلى حجره كأنها حيوانه الأليف،

أربكني وجود الكاميرا قربي، الكاميرا التي في داخلها صوري، أنا محبوسة داخلها، خرج كلامي منفعلاً ومتوتراً. قلت بنبرة عالية: "عاوزة صوري". فضحك الرجل وقال: "دي صور في الشارع، وإنتي مرفضتيش". زاد كلامه انفعالي: "إنت مجنون".

فضحك أكثر، ومد يده ليربت على كتفي، هذه التربتة كافية لزيادة هواجسي ناحية رغبته في استغلالي، يده كانت تطبطب، تمتد ناحيتي بحرص ولؤم، أزحتها عني برفق، وقلت له: "أنا ماشية". "امشي". فتراجعت وقلت: "عاوزة صوري". "الكاميرا كاميراتي والصور صوري".

ساد الصمت بيننا، لم أمشِ، ولم يتكلم. ثم قام بهدوء وشغل أسطوانة من أسطواناته المركونة إلى جوار الفونوغراف، كانت الموسيقا بلا غناء يعكرها، مد يده مرة أخرى وطبطب، وقال: "اهدي".

ناولني سيجارة بعدما ولعها من سيجارته. اشتغلت الموسيقا، لكنني كنت متوترة، وحاولت الكلام مرة أخرى، كلما فتحت فمي، يسرع الرجل قائلاً: "ششششش"، ويغمض عينيه. مع إصراره على السكوت لم يكن أمامي خيارات سوى شرب السيجارة بصمت. بعدما تأكد من استسلامي، نظر إلي وهو يشير بالكاميرا الصغيرة ناحية وجهي، قائلاً: "افهمي، الصور حلوة، تعالي بكرة أكون حمضتهم".

أول مرة أراه يتكلم أثناء تشغيل الموسيقا، كان صوته يعلو وينسجم مع اللحن كأنه يؤدي دور المغني، يتحدث ويشير بالكاميرا، فأرى

حركاته بطيئة، وصوته يأتيني من بعيد، كأنه يأتيني من كهف، تحتد نبرته، وصوته يغلظ حتى لا أستطيع فهم ما يقوله بالضبط، هززت راسي، وقلت دون أن أفهم كل الكلام: "بكرة"، فابتسم. سألته: "أمشي؟!"، قال: "امشي".

## -١١-

تحركت من الدكان، ومشيت عبر السوق. البائعون يفترشون الشارع بطوله. ارتدت إليّ الرائحة النتنة، خاصة مع أحشاء وقشور الأسماك الملقاة في كل مكان. من بعيد التفتُ لألقي نظرة إلى دكان الرجل، كان مدفوساً بين البائعين وبين بضاعتهم، وسط القذارة والملوحة، يشغل أغانيه وكأنه في عالم آخر، كنت أتخيله جالساً على كرسيه، ممدداً قدميه على الكرسي الآخر، ومتجاهلاً ما يحدث حوله، بينما يغمض عينيه عندما تنساب الموسيقا، يفتحهما ليلتقط لي الصور، بينما يرخي يديه على الكرسي، يشد بها كتفي. أردت أن أعود إليه، لأقول له إنني أراه كجثة محنطة، وسط بحر من جثث الأسماك النافقة، ثم قررت أنني لن أذهب إليه في الغد، ولا في أي وقت بعد الآن.

خرجت من الشارع، ثم حاولت الاتصال مرة أخرى بشباب ليلة أمس، لكنهم لم يردوا ثانية، فمشيت حتى شارع طلعت حرب على أمل رؤيتهم مصادفة، كنت أبحث عن أشكالهم، وأدقق في البيوت، حاولت استرجاع تفاصيل ليلة أمس لأتذكر أين يعيشون بالضبط، ولم أتذكر.

مشيت حتى السينما، شاهدت صورة إعلان الفيلم الذي شاهدناه معاً في ضوء النهار، كان باهتاً عن الليل. دخلت إلى بهو السينما، وتخطيت شباك التذاكر إلى الكافيتريا، لكنني لم أجدهم، فخرجت. كنت أشعر بالتشوش والملل، وقررت الرجوع إلى البيت.

أثناء صعودي السلم، لم ألمح القطط للمرة الثانية، فكرت في طرق باب الجارة الجديدة لأسألها: "شفتي القطط؟"، أو لأعرف ما الذي فعلته لتهرب القطط كلها من البيت. وقفتُ متأنية أمام الباب، أحاول التقاط أي صوت، ورأيت الضوء في الداخل ينعكس على زجاج الشراعة، هناك ثقب صغير أسفل الزجاج، فوضعت عيني عليه لأرى ما في الداخل، واصطدمت رؤيتي بطرف تابلوه معلق لم أتبينه بأكمله، وفكرت في توسيع الثقب بمشبك شعري حتى أستطيع رؤية التابلوه، أو رؤية الجارة الجديدة التي لم أرها من قبل، وبالفعل فككت المشبك من شعري، وبدأت بتوسيع الثقب، لكنني توقفت، للحظة كنت أرى ظلها ينعكس خلفي، ظل أسود يضع قطاً على رأسه ويزحف ناحيتي، خفق قلبي بقوة، وشعرت بالرعب، وجريت ناحية الشقة. لم أصدق ما رأيته، وبحثت عن المرأة لأروي لها ما حدث، لكنني لم أجدها، كان باب غرفتها مغلقاً، والنوافذ ما زالت مفتوحة في الصالة، وتطل على النهار الذي ينتهي في الخارج.

طرقت باب غرفتها بهدوء، ثلاث طرقات خفيفة، لكنها لم ترد، فكرت في فتح الباب والدخول، لكنني تذكرت ليلة الرجل المجهول، خفت من الدخول، فأراه مرة أخرى، أراها وهي تنام معه، أرى نظرة عينيها المشتعلتين ناحيتي، وجاء في بالي هذا الارتخاء

الذي تلا المضاجعة، واستسلامها تحت الجسد الكبير والمجهول، لهذا الرأس الذي لم أستطع رؤية وجهه في الظلام، الظلام الذي عكس ظل الجارة وهو يناورني.

ضغطت يدي على مقبض الباب، لففته لأفتحه، لكنني تراجعت، ووضعت أذني عليه لأسمع أي صوت، لكن الغرفة كانت ساكنة تماماً. فجأة شعرت بجوع شديد، هدّأت نفسي، وقررت التحرك إلى المطبخ للأكل، وبعدها سأعاود الطرق. في المطبخ لم أجد آثاراً لأطباق أو أي شيء يدل على خروج المرأة للأكل هناك، كانت بقايا اللبن مكانها على البوتاجاز، والكوب الذي شربت فيه داخل الحوض، سخنت اللبن على النار وحرصت ألا يفور مرة أخرى، واستعرت رغيفاً ثانياً من ثلاجة المرأة، أكلت نصفه مع كوب اللبن، ولففت النصف الثاني في كيس ووضعته مكانه.

شممت رائحة اللبن وهي تملؤني، فتحركت إلى غرفتي لتغير ملابسي، وكنت بين لحظة وأخرى أنظر إلى تليفوني لأتفقد أي مكالمة جاءتني من شباب السينما، لكنهم لم يتصلوا، تحممتُ وارتديت جلابية حمراء طويلة بلا أكمام. رغم البرودة التي تأتي من الخارج، فإنني أشعر بالانتعاش والهدوء بعد التوتر الذي أصابني بسبب شبح الجارة، وبسبب صور الرجل ونبرة صوته الغليظة، كانت صورة الكاميرا تتخايلني، بحجمها الصغير وقدرتها على التكتكة، إصدار هذا الصوت "تِك، تِك"، وهذه الكروت الناعمة والملونة التي ستخرج من صندوقها السحري، فكرت في شكلي داخلها، هل كنت أقف جيداً؟ ابتسمت أم لم أبتسم؟ نظرة الخوف من الرجل

ظهرت على وجهي في الصورة، ووقفتي المائلة تجاه الحائط، وفكرت كيف سيراني الرجل؟ سأكون موجودة عنده، يستطيع تعليقي، أو حتى تمزيقي، هل سيعلق صورتي عنده على حائط بيته؟ أم أنه سيضعها في براويز ويبيعها في فاترينته الزجاجية مع التحف. كنت أرغب في إلقاء نظرة على الصور، وعلى بيته في الداخل، أن أرى الإضاءة الحمراء التي تملأ غرفته عندما تتحرك يده في الماء ليطبع الصور، والحبل الذي سيعلق عليه الكروت، رغبت في رؤية عينيه العميقتين وهو يشير ناحيتي بهذه الكروت، وبلمس شعره المنحسر عن جبهته اللامعة.

نظرت إلى التليفون ولم أجد أي مكالمات. وشعرت بالندم لأنني لم آخذ رقم الرجل لأتصل به في مثل هذا الوقت. حاولت الانشغال عن أفكاري لأنسى الصور والرجل وكل شيء، فخرجت إلى الصالة. الليل بدأ بالظهور، والأضواء تلمع في الخارج. أغلقت زجاج النافذة، ووضعت خدي عليه. كانت تأتيني أصوات الكلاكسات وتدخل إلى أذني مباشرة، لامست بجلدي برودة الشباك، وزاد إحساسي بالبرد، وفكرت في ارتداء روب مثل المرأة، لكنني لم أمتلك واحداً مثله، فقررت أن أطرق الباب وأقول لها: "أعطيني روب، أنا بردانة".

طرقت الباب مرة أخرى طرقاً خفيفاً، لكنها لم ترد، فطرقت بقوة، ثم بقوة أكبر، وتحولت طرقاتي إلى خبطات، كلما زاد الطرق وزاد الصمت من ناحيتها، زاد الخوف في داخلي. انتابني هاجس أن المرأة ماتت في الداخل، وأنها دخلت غرفتها منذ ليلة أمس بعد أكل

المسقعة، قتلتها المسقعة، لم تتحمل معدتها المعتادة على الأرز كسر روتينها، فتجلط دمها وماتت، حاولت أن تناديني، لكنني كنت في الشارع أو في السينما. فكرت في جثتها الملقاة على السرير، ويدها المتدلية إلى الأرض، وفي جسدها الذي يرتدي الجلابية البيضاء بنقوشها الزرقاء الصغيرة، وفي عينيها الجاحظتين من الألم، وفكرت في طلب النجدة، أن أتصل بالبوليس، لكنهم سيتهمونني بالقتل: "قتلتها مع سبق الإصرار، قتلتها بالسم"، لكنني سأنكر وسأقول إنني أكلت معها من الطبق نفسه، لا، من الحلة نفسها، حتى الكلاب التي في الشارع المجاور أكلت ولم تمت، سأطلب منهم تحليل دمي.

تراجعت عن فكرة طلب النجدة، لكنني في الوقت نفسه كنت مرعوبة من الدخول إلى الغرفة، ومشاهدتها ميتة. فكرت في الاتصال بالشاب والفتاتين حتى يساعدونني على حمل الجثة أو الذهاب بها بعيداً، اتصلت برقم الشاب، لكنه لم يرد للمرة الألف، كنت على وشك الجنون، ووقع الهاتف من يدي وانكسرت شاشته، التقطته، كان مغلقاً بسبب الارتطام، فأدخلته إلى غرفتي، ورجعت مرة أخرى أمام باب المرأة، وطرقته مجدداً بقوة، ولم تفتح أيضاً، بدأت بالسير بين غرفتي وغرفتها، أتمشى مجيئاً وذهاباً في محاولة لتخفيف التوتر، ثم توقفت عندها، لم يكن هناك مفر، جسدي يرتعش، وباب الغرفة يتضخم أمامي، يكبر ويكبر، كان سيتهدم فوق دماغي، فكرت أيضاً في مناداة الجارة أو شبحها، كان لا بد أن أرى وحدي، فلففت المقبض بقوة وفتحت الباب.

فجأة كل شيء أصبح هادئاً، الذعر الذي انتابني، والغرفة التي كانت ستهدم منذ قليل. السرير فارغ، لم أجد جثة المرأة، ولم أجدها حية، لم تكن موجودة من الأساس. شعرت بالغرابة من تفكيري ومن هواجسي عن موتها، وشعرت بألم شديد في معدتي، كان الموقف كله موتّراً، والغرفة مظلمة وسقفها يمتد إلى أعلى، يمتد كأنه سينفصل عن البيت، أو أنه سيأخذ البيت معه ويطير، شعرت بضيق في التنفس، كنت أرتعش وأرى نفسي داخل صندوق ضيق، عاد إحساسي بكوني نقطة صغيرة داخل فراغ ليس له نهاية، وبسرعة بحثت عن مصدر للضوء في هذا المكان حتى أستطيع الرؤية. اعرف وجود أباجورة جوار السرير، خطوت أتحسس طريقي إليها، وأضأتها، فعاد كل شيء إلى أصله، الغرفة كما هي، والسقف مكانه، والنور الأحمر ينعكس على السرير الصغير، وظلا المرأة والرجل المجهول مكانهما أمامي.

-١٢-

عكس كل البيت، كانت هذه الغرفة مهندمة أكثر من اللازم، يوجد ورق حائط يغطي كل الجوانب، لونه يميل إلى الأخضر، ومنقوش عليه أزهار منمنمة، صفراء وحمراء وزرقاء. وُضِع السرير أقصى يمين الغرفة مواجهة الباب، وفوقه علقت صورة مؤطرة ببرواز ذهبي لامرأة ترتدي فستاناً أبيض طويلاً، تجلس على كرسي وتنظر إلى الأمام. هناك دولاب كبير أقصى اليسار، إلى جواره مرآة بيضاوية بإطار ذهبي أيضاً معلقة بمسمار. جوار السرير نافذة صغيرة مغلقة ومغطاة بستائر بيضاء، وضعت تحتها منضدة خشبية مربعة، وعليها زجاجة ماء فارغة، ودفتر صغير وأقلام رصاص كثيرة. أمام المنضدة هناك كرسي من الخشب، جلستُ عليه حتى أشعر بملمسه تحت ثقل جسمي. كان الكرسي عالياً ومريحاً، عكس كرسي الرجل القصير المصنوع من البامبو، لا يوجد مصدر إضاءة سوى الأباجورة جوار السرير، أظن أنها تكتب في النهار، وتفتح النافذة، فيدخل الضوء إلى المكان، حتى تستطيع رؤية الكتابة وهي تجلس فوق الكرسي.

قمت من الكرسي وتمددت على السرير، المرتبة طرية وتتأرجح،

ظللت أهتز فوقها، أشعرتني بمتعة صغيرة. ارتاحت أعصابي لوجودي هنا، ولعدم موت المرأة. قمت إلى الدولاب وفتحته لأبحث عن الروب الأصفر، وجدت دولابها مهندماً، وهناك ثلاث قطع صفراء مطبقة فوق بعضها ومرصوصة بعناية فوق الرف، أخذت قطعة منهم، وارتديتها، نظرت إلى نفسي في المرآة، كان الروب الأصفر يغطي ذراعيّ وجوانب الجلابية الحمراء، رفعت الجلابية أعلى الرِجل، وجلست على السرير مقلدة جلستها، وحركة يدها، وأصابعها، وهي تعزف في الهواء، ثم خلعت الروب، والتقطت القطعة الأخرى، لبستها أيضاً وعدت إلى المرآة، كان أقصر من سابقه، تحت الركبة بقليل، رفعت الجلابية حتى صارت متوازية معه، أعجبني شكلي في المرآة، ثم خلعته ووضعته على السرير، والتقطت القطعة الثالثة، كانت قصيرة جداً فوق الركبة بشبر تقريباً، فرفعت الجلابية ليصبحا متوازيين، ورأيت ساقيّ في المرآة طويلتين ومستديرتين. جلست على السرير، ووضعت رجلاً فوق الأخرى، وحاولت تقليد نظرة عينيها، وحركة فمها عند الكلام. وددت لو أغني، كان اللحن والمغنية المجهولة مناسبين تماماً لهذه الجلسة الممتعة، في هذه اللحظة لم تكن الأغنية تعيسة بالنسبة إلي، كانت تغني للحب، قد يكون هذا هو الـ"amour"، صوتها اللامع من الرغبة يتكلم بهدوء، ويقول لحبيبها: "تعال يا نوني، تعال يا حبيبي"، لا بد أن هذا المحبوب كان يقف وينتظرها لتنتهي من الغناء حتى يقبّل صوتها الرقيق، وينام معها على سريرها الدافئ، بالتأكيد سرير المغنية مريح مثل سرير المرأة الطري، وددت لو رأيتهما؛ المغنية وحبيبها، وهما ينامان هنا، فأستبدلهما

بذكرى المرأة ورجلها المجهول، وبذكرى عينيها المخيفتين. تمددت على السرير ودرت فيه، أدور فيدور معي الروبان الملقيان على المرتبة، كنت أشم رائحة المرأة على المخدة وفي ملابسها، وجاء في خاطري صورتي وأنا أرتدي فستاناً أحمر لامعاً، وأقف لأغني هذه الأغنية المجهولة، وأنني امتلك حبيباً يشبه رجل الدكان بعينيه الجميلتين ولمسة يده القوية.

أستعيد كلماته، وحركة يديه، وطريقة تدخينه، وشربه للقهوة في فناجينه الصغيرة، وهديته، وصوته الغليظ، ونظرته خلف الكاميرا، إنه يصلح أن يكون حبيباً للمغنية، قد يكون فعلاً حبيباً لمغنية مجهولة كانت تحبه في الماضي، وجاءت لتعيش معه في دكانه، وسط الأسماك، ثم غنت له ورحلت، فاحتفظ بصوتها داخل هذه الأسطوانة، وكان يسمعها كل يوم حتى يتذكرها. من الممكن أنني أشبه حبيته، لذلك صورني وتعامل معي بهذا اللطف، مجرد الشعور أنني أشبه صاحبة هذا الصوت أسعدني. كنت أدور على السرير وأتخيل صورة الرجل، وهذا أوقعني في نوم قصير.

عندما أفقت، كان شعري يدغدغ عيني، قمت من السرير وخلعت الروب القصير، وأخذت الطويل ولبسته، وبحثت عن مشط أو فرشاة لأمشط بها شعري، لم يكن هناك شيء أمام المرآة، فاتجهت إلى المنضدة الخشبية لأن لها أدراجاً صغيرة، وفتحت الدرج الأول، فلم أجد سوى دفاتر للكتابة، مكتوب على جلدها تواريخ، شدتني هذه الدفاتر والتواريخ، وعرفت أنها يوميات المرأة، فسحبت واحداً كُتب

عليه تاريخ الشهر الماضي، أي الذي أتيت فيه إلى البيت.

لم يمنحني الضوء الخافت المنعكس على المنضدة من الأباجورة رؤية جيدة، فسحبت الأباجورة ونقلتها إلى المنضدة حتى أستطيع القراءة. فتحت الدفتر، كان معنوناً في كل صفحة تاريخ اليوم: "١ مارس، ٢ مارس، وهكذا ..."، لاحظت أن لكل تاريخ صفحة واحدة، وفي أول صفحة كتبت: "١ مارس: اشتريت اليوم بلوزة جديدة من المرتَّب. في الخامسة قابلت الفتاة التي أتت للسكن، لم يعجبني شكلها، فرفضت عرضها."

كانت بقية الصفحات تتحدث بالاقتضاب نفسه، وبالنبرة نفسها، "اليوم أكلت ساندويتشين بدل واحد، اليوم لم أفعل شيئاً جديداً، اليوم قابلت فلانة، اليوم غسلت الأطباق، اليوم فعلت كذا وكذا". لم يشدني شيء محدد فيما تكتبه، فتخطيت الصفحات حتى أرى ماذا كتبت عني في اليوم الذي أتيت فيه، وجدت الصفحة قد كتب فيها:

"٢٠ مارس: اليوم نمت حتى العاشرة، أحب النوم يوم الإجازة، قابلت الفتاة التي ستسكن معي في النهار، واتفقت معها أن تأتي في الليل، كلمت "س" وواعدته حتى وقت متأخر، واتفقنا أن يأتي اليوم إلى البيت."

ثم قرأت اليوم التالي، لأرى ما حصل في أثناء مشاهدتي لهما. كتبت:

"٢١ مارس: خرج "س"، وعاد ومعه سمكة كبيرة، وضعها على منضدة المطبخ، طبع قبلة على خدي ورحل. بينما كنت آكل الأرز، امتلأ البيت برائحة السمك المقلي."

لم أفهم شيئاً من هذه اليوميات، لم تتكلم عني، ولم أعرف كيف تفكر فيّ، قالت فقط "الفتاة"، حتى الرجل لم أعرف عنه شيئاً، تناديه "س"! كأنه رمز سيظل مجهولاً لي.

كل الأيام بعد ذلك كانت تكتب فيها: "اليوم فعلت وفعلت"، لم تذكر أي شخص معها، كأنني غير موجودة، تقول مثلاً: "تضايقت اليوم من رائحة الدخان، أزعجني الصوت الآتي من الغرفة المجاورة"، كنت مجرد فعل غير معرف بالنسبة إليها. فتشت عن الدفتر الجديد لبداية شهر أبريل حتى أرى يوم المسقعة، لم أصدق أنها قد تكتب "أكلت المسقعة اليوم" دون أن تأتي على ذكري. فتشت عن الدفتر، كانت الدفاتر بتواريخ قديمة، كلها مكتوبة بالطريقة نفسها، "اليوم فعلت وفعلت"، جملتان أو ثلاثة لكل يوم، كأنها متتالية ماسخة وبلا معنى. لم أجد دفتر أبريل، حاولت فتح الدرج الآخر، لكنه لم يفتح، حاولت شده بعنف، أسمع صوت المنضدة يرتج، والهواء يشتد في الخارج وراء الستارة، حتى إن زجاج النافذة في الصالة فُتح من شدة تيار الهواء. انخلع الدرج في يدي، فوجدتُ مناديل قماش صغيرة مرصوصة فيه، ودفاتر بيضاء جديدة لم يكتب فيها شيء. كنت أقلب في المناديل لأفهم ماذا تعني، لم يكن هناك شيء مميز. مناديل بكل الألوان، ودفاتر من الماركة نفسها بحجم كف اليد. أدخلت يدي في الدرج حتى أستشعر وجود شيء آخر، فلم أحس سوى بملمس الخشب الخاوي، فوضعت المناديل مكانها، وحاولت إغلاق الدرج لكنه كُسر بالفعل. جلبت مسماراً وشاكوشاً من غرفتي وحاولت إصلاح الأمر، لكنني فوجئت بالمرأة تقف أمام باب الغرفة، هي في

الخارج، وأنا في الداخل، كانت الأباجورة مسلطة بضوئها الأحمر على وجهي وأنا منكبي على الدرج، والمرأة أمام الباب تحدق بذهول، عيناي في عينيها، لكنها لم تكن على سريرها أو نائمة مع رجلها، كانت في الخارج تشاهد، وكنت أنا من أقوم بالفعل هنا، ألبس ملابسها، وأفتش في حجرتها، وأنظر ناحيتها من الداخل، مستنكرة وجودها هنا في هذه اللحظة، كنت مرعوبة.

# الفصل الثاني

## -١-

وقفت أشاهد عودة المرأة من موتها المتخيل في دماغي. المرأة في مواجهتي تسد الباب بجسدها الطويل النحيل، حاولت الابتسام، لكن عينيها اتسعتا محدقة إلى جسدي على الأرض، فتركت الدرج مفتوحاً، وحاولت التحرك إلى الخارج، لكنها فردت ذراعها لتسد المنفذ، وواجهتني بنظرة مبحلقة وبراقة، أشارت ناحية المنضدة، وقالت: "صلّحي الدرج".

لم يكن هناك مفر، رجعت مرة أخرى إلى مكاني، وحاولت دق المسامير في الخشب، كانت يداي ترتعشان، وهي ترى ذلك. صوت الشاكوش هو الصوت الوحيد الذي أستطيع سماعه في هذه اللحظة، لكنها لا تعرف ذلك، تحركت المرأة ناحيتي، وسحبت الكرسي من أمام المنضدة، ووضعته جوار الباب، وجَلست واضعة قدماً فوق الأخرى، بنظرة موجهة إلى يدي.

كان ضوء الأباجورة مسلطاً على وجهي، وممتداً إلى قدميها، وصانعاً ظلاً أفقياً ينعكس على الدرج، أدق المسامير في موضع ظل أصابعها، أحاول تثبيتها مع كل مسمار، أدق وأدق حتى

أغلقت الدرج تماماً. هي وقفت ليتحرك ظلها ويصبح على وجهي، كنتُ جالسة في مكاني، جاثية على ركبتي، وهي تقف أمامي، جسد طويل بظل أطول فوق رأسي، مستعد للهجوم في أي لحظة.

أسمع صوتها الحاد، تشير إلى الكرسي بإصبعها، وتقول: "الكرسي، مكانه". قالتها بنبرة مهتزة ومخيفة، فقمت وحاولت تخطيها، لكنها ظلّت جامدة، ولم تتحرك لتترك لي المساحة لأخطو، استخدمت المسافة الضئيلة بين المنضدة وبين جسدها، لم أتكلم، وتحركت من جوارها إلى الكرسي، وحملته ودرت حولها ووضعته مكانه، ثم وقفتُ أنتظر منها الأمر التالي، لكنها ظلت صامتة وقتاً، ثم تحركت إلى سريرها، جلست فوقه مدلّية رجليها إلى الأرض، ثم بدأت تتأرجح فوق المرتبة، تصعد وتهبط باهتزازات خفيفة. التفتت إليّ، وقالت بهدوء: "تعالي"، فخطوت حتى صرت أمامها، أمرتني بحزم أن أخلع الروب، فخلعته، وأعطيتها إياه، أمسكته بيديها، وقربته من أنفها، واستنشقت القماش بقوة، ثم وقفت أمامي، ومدت الروب إلى وجهي، وضعته أمام أنفي، وقالت: "شمي". ثم أرجعَته إلى أنفها، فقلتُ: "آه".

وحاولت الابتسام عندما رأيتها تبتسم، اتسع فمها، فظهرت أسنانها الكبيرة المرصوصة، أمسكت الروب من ياقته، ومدت يدها إلى الأمام وقالت: "شوفي".

بينما تمزعه بيديها، أرى الخيوط الصفراء تنحل عن بعضها من قوة الشد وتسقط أمامي وعلى قدمي، شعرت بالسخونة تتسرب إلى

وجهي، وشعرت بدمعة تسقط من عيني على فمي، رأيت أسنانها تنفتح أمامي مرة أخرى، لكن هذه المرة كأنها ستمد فمها لتأكلني، حركت وجهي بعيداً، وخرجت بسرعة من الغرفة، فاصطدم رأسي باب غرفتي، كنت خائفة من إيجادها خلفي، فدخلت بسرعة، وأغلقت الباب خلفي بالمفتاح.

كان عليّ تهدئة نفسي بسرعة، حاولت الذهاب بخيالاتي بعيداً، إلى مناطق حالمة وملونة، لكنني لم أستطع، أسمع صوت جسدي وهو يهتز على السرير في الظلام كأنه لا يخصني، الصوت يأتي من بعيد، ويختلط بأصوات مشوشة تخرج من أذني، وضعت يدي عليهما لأمنع الصوت، وحركت جسمي إلى اليمين وإلى اليسار، ثم إلى الأمام وإلى الخلف، وانتظرت سماع صوت المرأة في الخارج، بعد دقائق سمعت صوت إغلاق بابها بعنف، فهدأت قليلاً، لكنني لم أقوَ على التمدد أو النوم، وفتحت الشيش لأشم الهواء، كان الفجر في الخارج يتمدد، ونباح الكلاب يعود من جديد، ويذكرني بليلة النوم مع الرجل المجهول، كأنها حدثت في هذه اللحظة، لم يكن ينقصني سوى الخروج والذهاب إلى غرفتها، لأراه ينام معها مرة أخرى.

كانت فكرة الخروج من البيت تلح علي، فتحت تليفوني واتصلت بشباب السينما، على أمل أن يردوا، لكنهم لم يجيبوا، وشعرت بالضيق لأنهم ضللوني، وأعطوني رقماً لا يجيب عليه أحد، فقررت النزول.

ارتديتُ البنطلون الجينز، وبلوزة رمادية ثقيلة وفضفاضة. خطوت

ببطء من الباب إلى السلم، كان الظلام غليظاً، يحجب رؤية أي شيء، سمعت صوت قطة في الطابق الأسفل تموء مواءً متواصلاً، فتوقفت خوفاً من دوسها، وسمعت صوتاً أنثوياً فجأة، وهو يقول: "امشي امشي". فتراجعت إلى الخلف. قال الصوت: "أنا جارتكم". فقلت بنفسٍ متقطع: "اهلاً وسهلاً". فردت: "أصلي سمعت صوت القطة فخرجت اشوف". تحركتُ إلى الأمام بحذر، وقلت لها: "آه، معلش".

سمحت لي خطوتي أن أرى وجهها، لكن بشكل غير واضح، بسبب النور الخفيف الذي يأتي من بيتها، كانت الجارة كتلة جسدية مكورة وقصيرة، وتربط شعرها بإيشارب صغير، تخطيتها حتى نزلت درجتين من السلم، فسألتني: "إنتِ خارجة؟"، فرددت دون أن ألتفت: "آه". همست كأنها تتكلم مع نفسها: "الجو يخّوِف".

لم أرد عليها، ونزلت بسرعة، وصلت إلى الشارع في لمح البصر، كأنني سقطت، أو أن الهواء دحرجني إلى الأسفل.

درت في الشارع الكبير الفارغ، يؤنسني صوت الكلاب، كل شيء ساكن وجامد، كأنه يعود إلى أصله في الظلام. تحركت بخطوات مترنحة إلى الأمام يصطدم الهواء بجسمي، ويحرك قماش البلوزة وخصلات شعري على وجهي، كنتُ أقرب إلى الطفو فوق الأرض.

اقترب مني كلب أسود كبير شارد من عائلته، ومشى جواري، فتوقفت قليلاً وجلست أمامه، مددت ظهره بيدي، ثم تحركنا معاً،

قلت إن هذا هو الكلب في الأغنية، إنه نوني عاد في الحكاية الأولى، يبحث عن مغنيته، واقتنعت الآن أنني مغنيته.

تحركنا حتى وصلنا إلى السوق الخاوي، كان الضباب يلف كل شيء، يبتلع دكان الأنتيكات المغلق، ويغطيني أنا والكلب، ثم يتفكك في هدوء ليسمح للنهار أن يشرق بعد قليل. رأيت السماء تتفتح ببطء أمامي، رجلاي كانتا تسيران في اتجاه مجهول، لم أعرف إلى أين ذهبت، أخذني الكلب وتحركنا، حتى وجدنا أنفسنا في شارع مليء بالأشجار الكبيرة، كانت هناك واحدة عملاقة ترخي أوراقها الكبيرة إلى الأسفل، وفروعها متشابكة، وتظهر منها بقايا للقمر المنزوي، توقفت تحتها لألتقط صورة لها، فأخرجت التليفون من جيبي، ودست زر التصوير، لكنني وجدت كاميرا التليفون انكسرت، فتذكرت سقوطه أمام غرفة المرأة، وجاء في ذهني ابتسامتها وهي تقطع الروب بيديها، كانت ذكرى وجهها تشبه الضباب الذي يسرح ليغطي عيني، لكن الكلب نبح ونبهني للسير مرة أخرى، فتحركت ببطء، والكلب كان يوازيني، نظرت إليه، ثم أسرعت خطوتي قليلاً، فتحرك بالسرعة نفسها، ثم توقفت فتوقف، نظرت إلى عينيه ثم جريت، فجرى معي، كنت أضحك وكان ينبح، ولم أستطع التوقف، أجري وأدور، وهو كان يجاريني، ثم يقف من وقت إلى آخر ليقفز قفزة صغيرة لألمس راسه بيدي، ونستمر بالجري.

انتقلنا من شارع الأشجار إلى شارع ضيق ومسدود، لم أرَ في الظلام جيداً سوى هيكل سيارة صغيرة مركونة في آخر الشارع.

تقدم الكلب أمامي، وفرد جسمه وسط الشارع ثم عوى، كانت هذه إشارته لظهور أصوات كثيفة من النباح، لم تكن تخص كلباً واحداً، كانت متعددة وحادة، رأيتُ أشباح كلاب تخرج من تحت السيارة ومن فوقها، كانوا يسيرون في خطٍ كأنهم يخرجون من نفق غير محدود، من الضباب، كل شيءٍ حدث في ثوانٍ، كنت أحاول التراجع، لكنني وجدت نفسي محاطة بأجسام الكلاب وعوائهم، في شبه دائرة، أنظر إلى كلبي الذي انضم إليهم، عيناه الطيبتان تشعان بالشرر، كلبي هو قائدهم، نبح نباحاً قصيراً، وتقدم خطوة ناحيتي، ومن خلفه كانت الكلاب تزمجر وتظهر أنيابها، وتستعد للهجوم. كنتُ مجهزة للافتراس بين أسنانهم المسنونة في هذه اللحظة، ثم شعرت بنفسي أقفز قفزة طويلة فوق الكلب الذي كان جواري وأتخطاه. جريت خارج الشارع، وعلا صوت لهاثهم ونباحهم من خلفي، وشعرت بعدم فائدة الجري، فتوقفت أمامهم فجأة، وشعرت أن وقوفي أربكهم لأنهم توقفوا أيضاً، فتشجعت أكثر، ونظرت إلى الكلب الذي كان خلفي مباشرة، وصرخت بعنف، كانت الصرخة تخرج من بطني إلى حلقي، تتردد بين جدران البنايات وترتد إلى أذني، فتصنع صدى حاداً ومتوحشاً. ملأ صوتي الشارع، فهدأ كل شيء، لم أسمع صوتهم مرة أخرى، انسحبوا إلى الخلف وهم يزمجرون، ودخلوا إلى شارعهم. انزووا إلى سيارتهم من جديد، ظل كلبي الأسود واقفاً أمام السيارة ينظر ناحيتي، وأنا لم أتحرك من مكاني، نظرت إلى عينيه وأنا أصرّ على أسناني، كنت أريد عضّه من رقبته، من الشريان الذي يوصل له

الحياة، حتى أذبحه تماماً بأسناني، فيخرج خيط الدم من رقبته ويغرق الشارع.

## -٢-

انحسر الظلام كلياً ليسمح لضوء الصبح الخفيف بالبزوغ. كنتُ أتحرك بانحناء خفيف إلى الأمام، ولم أستطع إبعاد صورة الكلب عن دماغي، كنت أتخيله أمامي، وأنا أنقض عليه بقوة ثم أمتطيه، أمسك رقبته بين أسناني، ثم أغرس أصابعي في دمه، وأمسحها في فروته السوداء اللامعة، تخيلتُ أنني أحمله فوق ظهري، وأجرجره على السلم، ثم أتركه أمام غرفة المرأة، أو تحت قدميها، لأقطر دمه على وجهها وهي نائمة.

شعرت أنني سأغرق في بقع الدم المتخيلة، التي ستغرق شعري وملابسي، ثم ستمدد لتغرق الشارع، وتسرح لتصل إلى السوق، وتكون بحراً يغمر كل شيء، حتى تمكنني من رؤية الكل يطفو مع اللون الأحمر القاني، ليكنس الدم كل شيء.

رغم بياض ضوء النهار، فإن بقعاً حمراء كانت تخايل عيني، أراها أمامي وفي كل مكان تبرق وتختفي، ظللت أغمض عيني وأفتحهما، وأهز راسي هزات قوية حتى أبعدها عني، أتحرك واسمع أصوات الناس الذين بدؤوا بالنزول إلى الشارع كأنها عواءات طويلة غير

مفسرة، أحاول سد أذني وإغماض عيني في اللحظة نفسها، فأحس بدقات قلبي تهتز وتتخبط في عظام الصدر. حاولت تهدئة نفسي، فشبكت يديّ بعضهما بعضاً، ضغطتهما، كانتا باردتين، طبطبت على كتفي، وكلما نظرت ناحيتهما، رأيت البقع الضوئية تتحرك حولهما. أغمضت عيني لأبعد الصورة عن وجهي ثانيتين، وعندما فتحتهما، وجدت البيت أمامي.

قوة كبيرة تدفعني إلى قتل المرأة، كأن البحيرة الحمراء جرفتني إلى البيت في لمح البصر، جسدها النحيل يخايل رأسي منساباً من ثقب ما في دماغي، يقف الجسد أمامي، يذلني بقدمين طويلتين، الجسد المترنح كان يجلس على كرسيه ويعطي الأوامر، يجلس على السرير ويشير بإصبعه: "تعالي، تعالي لأمزقك مع الروب الأصفر، لأحولك إلى فتلة". كأن الجسد يقول: "سأحولك إلى مجرد خيط مهلهل يسقط تحت قدميّ"، يرى الرغبة المنسابة في عيني، الرغبة في السكون، الرغبة في سماع صوتٍ آمن، الرغبة في النوم، النوم أعمق الأشياء التي أحبها، لكن الجسد يصر على الوقوف، يصر على الانتهاك، على إطلاق أنيابه حتى آخر رمق، ليحولني إلى مرق. ههههه، رمق ومرق، صرتُ شيئاً سائلاً أمامها، كأنني انسكبت ولم أعد كما كنت، قلت: "سأقتلها"، وكان لا بد أن أقتلها.

أعرف أنها تنزل من البيت في السادسة بالضبط، قررت انتظارها خلف السلم ثم مفاجأتها بوجودي، لأضربها على رأسها، وأجعلها تسقط على الأرض، ثم أدوس وجهها بقدمي، وأتركها وأجري. وبالفعل، حشرتُ جسمي تحت السلم في فناء البيت، أمام باب

المنور الصغير، وكنت أسمع صوت المياه تتسرب من مواسير الصرف خلفي، ممتزجاً بصرير الفئران التي تسكن البيت، وأدركت لوهلة أن اللون الأحمر اختفى أمام عيني، وحل محله لون رمادي، فأسندت رأسي إلى الحائط، وغفوت.

كان نومي قصيراً ممتلئاً بالأفكار والصور المتضاربة، كأنني كنت أنام ولا أنام، أشعر بكل شيء، وأسمع كل شيء، وفي الوقت نفسه لا أعي شيئاً. فتحت عيني على صوت تكتكات قوية فوق السلم، كانت بالتأكيد الساعة السادسة، عرفت أنها المرأة من الخطوات المتمهلة على السلم، حشرت جسدي أكثر في الداخل حتى لا يظهر منه شيء، وانتظرت تحركها إلى الأسفل. كانت الخبطات تهز السلم وتهتز فوق رأسي، حتى رأيتها تنزلق أمامي إلى باب البيت ببنطلونها وقميصها الأسودين، كانت تلم شعرها من الخلف في كعكة كبيرة، لو أنها التفتت إلى الخلف، لرأتني. أثنيت نصفي الفوقي وغطّست رأسي في حجري، وأغمضت عيني بقوة، كنت أحاول الاستعداد للمواجهة القادمة، لكنني سمعت صوت قدميها تخطوان إلى الخارج.

بين لحظة خروجها، ولحظة إدراكي لخروجها، كانت السيارات في الشارع تمرق وتهز الهواء، فتحركه إلى الداخل. عندما سمعتُ صوت رجليها تبتعدان، فتحت عيني، لأجد نفسي في بقعتي المظلمة مثنية الظهر إلى الأمام، قمت وفردت ظهري، وخطوت بحرص ناحية الباب، ومددت رأسي لأراها، كانت تسير في اتجاهها غير مدركة لوجودي.

قررت السير خلفها، فخرجت من مخبئي، وتركت مسافة معقولة

بيننا حتى لا تراني، كانت تسير بهدوء، خرجت من الشارع، ومشت في دائرة حتى وصلت إلى السوق، تمشت في الشارع شبه الخالي، وراهنتُ نفسي أنها ستوقف أمام محل الأنتيكات، ظللت خلفها حتى وصلنا إلى نقطة المحل الذي كان مغلقاً، فوقفت المرأة، وانحنت على حذائها لتوثق رباطه الذي انحلّ، ثم رفعت عينيها نحو الباب المغلق وهي تفرد نفسها إلى الأمام، تأكدت في هذه اللحظة أنها تعرف الرجل، أسرعت خطواتي لأقترب منها، أردتُ إمساك رأسها لأديره ناحية الدكان لأقول لها: "اهو الدكان، أهو، شوفي!"، لكنها تحركت في اللحظة نفسها، فتراجعت وظللت أتحرك خلفها، أراقب شكل جسمها النحيل من الخلف، كانت تتحرك بنعومة وتتوقف فجأة، ثم تعاود السير، ظللت خلفها حتى خرجت من شارع السوق، منحنية بطريقها ناحية شارع القصر العيني. كان الشارع يتسع كلما استمررنا في المشي، تتسع الهوة بيننا، فأرى الشارع يجذبها بين الأجساد البطيئة المترنحة في ذهابها المبكر للعمل، كنت أناور الكيانات التي تحيط بي بحركات سريعة حتى لا تتوه عن عيني، ظللت خلفها حتى وجدتها تعبر الناحية الأخرى من الشارع العريض، ثم توقفت عند موقف الأتوبيسات، وانتظرتُ تحركها التالي، لكنها ظلت مكانها حتى جاء أتوبيس أحمر مكتوب عليه: "القصر العيني – الجيزة"، فتحركت نحوه، رأيتها تتسلق سلمه الصغير، وعيناها تتجهان ناحيتي قبل أن تصعد.

أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى، وانتظرت مرور الأتوبيس، لم أقوَ على الالتفات لأراها داخله أو أرى عينيها وهي تحدق إليّ مرة

أخرى، فعاودت سيري في طريق البيت، واكتفيت بسماع أصوات الكلاكسات خلفي.

وأنا في طريقي، رأيت الشارع الذي خرجت منه الكلاب، فشعرت بالغثيان، وعادت البقع الحمراء البراقة لتخايل عيني. أسرعت خطوتي، وشعرت بالجوع الشديد، كنت أخطو من شارع إلى شارع في لمح البصر حتى اقتربت من السوق، وعندما أصبحت في داخله، شممت رائحة قلي السمك. رأسي يلف بطريقة جنونية، وزادت رغبتي في الأكل، ظللت أتبع الرائحة حتى وجدت نفسي أصعد بيتاً متهالكاً بلا أبواب، كان طابقين، الأول فيه باب مغلق، والثاني سطح كبير، يقف فيه الصبي الذي باع لي السمكة في أول يوم لي في البيت، كان يقلي مئات الأسماك داخل إناء ضخم ومقعر، ويلتف حوله مئات من البشر، ربما آلاف. الكل كان مدعواً إلى الوليمة الجماعية. مددت يدي لأطلب سمكة، فسبقني الصبي ومد يده ناحيتي برغيف مليء بالسمك الصغير الذي يماثل حجمه عُقَل الأصابع، أخذت الرغيف وبحثت عن بقعة صغيرة أنزوي فيها للأكل، فوجدت غرفة مخبأة مصنوعة من القصب، وتتسلل من ثناياها أشعة شمس خفيفة، اخترت بقعة نظيفة وجلست، كنتُ هناك، وأمامي وجبة كبيرة تخصني وحدي، قلت لنفسي: "كُلي". كنت أشجع نفسي على الأكل بنصف رغبة ونصف خوف.

أسمع الأصوات في الخارج، وأرى ظلال الحركات الدؤوبة تنعكس على البوص، تقف ثابتة ثم تهتز. فكرت لوهلة أنني لو امتلكت مسدساً، سيصبح الأمر سهلاً، أدخل إلى البيت، فأراها في مطبخها، تجلس مكانها وهي تحرك يدها في الهواء، أو تمضغ

أرزها، قد لا أجدها في المطبخ، أجد باب غرفتها المغلق، فأزيحه بعنف، أواجهها بوجه مخيف، بعينين جاحظتين، هي ستكون جالسة على كرسيها وتكتب في دفترها كلماتها المملة، سأصوب مسدسي ناحية رأسها تماماً، في منتصف جبهتها، سأطلق الطلقة، فيشتعل الشرر والدخان الخفيف من المسدس، ويدوي في عظام دماغها، بوووم طويلة، تفرقع وتخرج من الخلف إلى الجدار، فيتدلى رأسها وينحني إلى الأسفل، ويسقط جسدها على الأرض، مكوماً ومغموراً.

صورتها مجسدة أمامي، على البوص متداخلة مع الظلال الغريبة، تهتز مع الغرفة، يسقط البوص وقطع الخيش من السقف على رأسي، ونور الشمس ينكشف حتى يملأ عيني، تتلاشى الصور كلها، أشعر أنني أترنح، خرجت لأرى الصبي، فلم أجده، لم يكن موجوداً، ولا أي شخص آخر، فقط كان قدر الزيت الكبير ما زال ساخناً يخرج منه البخار، لكن النار مطفأة، البيت يميل بي كأنني في أرجوحة، حاولت نزول السلم، أسندت يدي إلى الحائط متجنبة الترنح باتجاه الدرابزين المكسر، أسندت جسمي إلى الحائط وجررت نفسي إلى أسفل بصعوبة، ثم فجأة هدأ كل شيء وأصبح ساكناً، في هذه اللحظة وصلت إلى فناء البيت الضيق، وسمعت الباب الصغير في الدور الأرضي ينفتح بهدوء، كان يصدر صوتاً كالفحيح، يتحرك وتزداد حركته، فيتحول الفحيح إلى أزيز، كان يخرج من الباب بخار كثيف حجب عني الرؤية، وللحظة كنت أميل مرة أخرى، أترنح ويترنح البيت معي، وكان رجل الدكان يخرج من البخار ويتجسد أمامي، كأنني كنتُ أراه بشحمه ولحمه.

## -٣-

لا أعرف كيف وجدت نفسي أجلس على كنبة الرجل، داخل بيته الصغير، في يدي رغيف مفتوح مليء بالسمك، والذباب يلتف عليه ويحوم حول وجهي، كنت سكرانة ورؤيتي مشتتة، وللحظة فكرت في أنني عبرت الدكان إلى البيت، كأن كوّة انفتحت وبلعتني إلى الداخل، وأدركت أنني أجلس على كنبته التي عليها مفرش أبيض مليء بالأزهار الباهتة. كان الباب المؤدي إلى الدكان مغلقاً، والرجل يقف أمامي، ظهره لي، واضعاً كنكة صغيرة فوق سبرتاية نحاسية اللون، يحني جسده الطويل عليها ليراقبها، لاحظتُ أن جسده لم يكن سميناً نسبة إلى السن الذي قدرته له. مددت بصري لأرى البيت الضيق، رأيت على يميني غرفة نوم، بابها المفتوح سمح لي برؤيتها كاملة من الداخل، كانت مستطيلاً ضيقاً وصغيراً، فرشت على أرضها سجادة صغيرة، تظهر البلاط الأصفر من تحتها، وفي ركن الحائط القريب جداً من الباب وُضِع سرير صغير وعليه ملاءة مهترئة. إلى جوار الرجل كان هناك باب طويل وضيق مغلق، خمنت أن

هذه البقعة هي الحمام.

التفت الرجل ناحيتي بابتسامة واسعة، ساعدت على تقطيب حاجبيه على عينيه، وقال: "حالاً القهوة تكون جاهزة". لم أرد عليه، كنت أحاول فهم ما يحدث، حدقت ناحيته دون ابتسام، ووقع مني الرغيف على الأرض، فرأيت السمك الصغير يتناثر تحت قدمي وينزلق تحت الكنبة، أسرع الرجل ناحيتي وقال: "حصل خير". جذب بسرعة مكنسة كانت مركونة إلى الحائط وجاروفاً، رغم أنني لم أتحرك من مكاني، ثم أمسك رجليّ بنعومة ورفعهما إلى الكنبة، وبينما كان نصفي الفوقي في وضعية الجلوس، أصبح نصفي السفلي مثنياً وممدداً على الكنبة.

كنس الرجل الأرض تحتي، فتجمعت الأسماك الصغيرة ممتزجة بالتراب في جاروفه، أخذها وفتح الباب المؤدي إلى الدكان، خرج وتركه مواربا. كان الدكان هو مصدر النور الطبيعي في مساحة الرجل تلك، وكان النهار يغمر البقعة التي استطعت أن أراها من الدكان، لكن الرجل جر الباب في الخارج وأغلقه بالمفتاح، فأظلم المكان، ثم عاد إلى الداخل تاركاً الباب الفاصل بين بيته ودكانه مفتوحاً، وأضاء لمبة صفراء صغيرة فوق الكنبة التي أجلس عليها. ثم جلس جواري شابكاً يديه ببعضهما بعضاً، كان طرف إصبع قدمي الكبير يلامس فخذه، فحركته إلى الأمام وإلى الخلف، هذا سمح لإصبعي بالاقتراب من فخذه أكثر، بحركة سريعة انسحب الرجل واقفاً، ورجع أمام القهوة التي بردت، وصبها في فنجانين، ثم وضع كرسياً صغيراً أمام الكنبة،

ووضع عليها الفناجين، وجلس جواري تاركاً مسافة ضئيلة بين جسده وقدمي، مددت قدمي أكثر بحرص، فأصبح طرف إصبعي يلامس فخذه مرة أخرى، لكنه لم يلاحظ حركتي لأنه ظل في مكانه مستريحاً، ممسكاً بفنجانه بين يديه، شارباً منه رشفات متابعة، ومحدثاً صوتاً.

كنتُ أرى جانب وجهه جواري، شعره الغزير على الجانبين والمنحسر على الجبهة اللامعة، لون الشعر يتدرج بين البني والرمادي، وجلد وجهه مشدود، يده الكبيرة تمسك الفنجان الصغير وترفعه إلى فمه الرقيق، لكنه لم يلتفت إلي، طلب مني شرب القهوة ولم أستجب له، وبدأت بتحريك نفسي بهدوء حتى أصبحت راحة قدمي ملتصقة بفخذه تماماً، نظرت إلى وجهه لأرى رد فعله، لم ألاحظ تغيراً، كان يجلس ثابتاً ويرشف القهوة بهدوء، بدأت بتحريك قدمي أكثر، وشعرت باهتزاز يرج رِجلي، وسمعت صوت التليفون الذي أصدر صريراً متوتراً في جيبي، فأرجعت قدمي إلى الخلف، وأنزلتهما إلى الأرض، ثم أخرجت التليفون، فوجدت رقم شاب السينما، أتاني صوته عبر السماعة عالياً ومنطلقاً: "إنت فين؟"، قالها، فضحكت، لكنه لم يسمع ردي، ثم أضاف بسرعة: "بعد ساعة عند تمثال طلعت حرب، هنكون كلنا هناك".لم يمهلني الفرصة للرد، وأغلق السّكة. عندما التفتُ إلى الرجل وجدته ينظر ناحيتي، مثبتاً عينيه على رقبتي، وواضعاً يده فوق رأسه.

قمت من مكاني، ووقفت لأواجهه بجسدي، رفع قدميه على

الأرض، وأخذ الوضعية التي كنت أتخذها منذ قليل، ظهره مسنود إلى الحائط خلفه، ورِجلاه مثنيتان إلى الخلف، من وقفتي لمحتُ صورة معلقة فوق الكنبة، كان جالساً فيها على الكنبة نفسها، عمره أصغر ١٠ سنوات على الأقل، يرتدي بذلة سوداء أكبر من مقاسه، ويشمّر كميه فيظهر ساعداه الرشيقان. على يمينه تجلس امرأة ترتدي فستاناً أسود، وعلى يساره امرأة أخرى ترتدي فستاناً أحمر، اقتربت لأدقق النظر في الملامح المنمنمة، فقال الرجل: "اختي وامي".

اندهشت من كلامه، كانت ملامح المرأتين تنم على أنهما في العمر نفسه تقريباً، بوجهين مختلفين، لا تشبهان بعضهما ولا تشبهان الرجل. شعرت أنه يكذب، فاقتربت أكثر ووقفت فوق الكنبة حتى أستطيع أن أرى بوضوح، ظل مكانه لاوياً عنقه ورافعاً رأسه تجاهي، كلتا المرأتين كانتا بشعر كبير يتدلى على ظهورهن، ويظهر طوله من الجنب، وبأجساد متماثلة في الحجم، ليست صغيرة ولا كبيرة.

فكرت في أن واحدة منهما هي مغنية الرجل المجهولة، ذات الرداء الأحمر مثلاً، ماذا لو كانت المرأة الأخرى هي صاحبة السكن، قلت لنفسي ذلك، وشعرت أنني وقعت في فخ كبير.

حاولت التدقيق أكثر في الصورة، قربت وجهي، لكن الملامح من هذه المسافة القريبة جداً كانت مموهة أكثر. نظرت إلى الرجل أسفلي، وأشرت إلى المرأة ذات الفستان الأسود وسألته: "أختك؟"، فرد بلا تردد: "أمي". "كذاب"، قلت في بالي، كلهم

تقريباً في العمر نفسه. الرجل والمرأتان. شعرت أنه لا سبيل أكثر للمراوغة، فسألته: "إنت تعرف الستّ؟"، بدت على وجهه علامات الحيرة، فأكملت: "صاحبة السكن". "أنهي سكن؟"، "سَكني". "فين هو؟"، "البيت الكبير في الشارع جنب السوق". لوى بوزه، فأضفت: "في آخر دور". حرك حاجبيه، وقال بنبرة قاطعة: "لا".

تركت الصورة، وجلست جواره، اقتربت منه حتى صار فخذي ملتصقاً براحة قدمه، وقلت: "بتلبس بنطلون وبلوزة سودا، بتعدي كل يوم من هنا". "مين؟"، فقلت له بنفاد صبر: "صاحبة السكن". فرد بإصرار: "لا معرفهاش".

كنت أشم رائحة الكذب بين كلماته، لكنني سكت. ابتعدت قليلاً تاركة مسافة ضئيلة بين جسدي وبين رجله. على الناحية الأخرى جواري مباشرة باب غرفة نومه، استطعت أن ألمح الكاميرا الصغيرة ملقاة على السرير، وفكرت أن هذه الغرفة قد تكون المعمل الذي يطبع فيه الصور، قد يكون هناك حوض خلف الباب يغطس فيه الكروت، يشغل أغنيته الغربية، ويثني كتفيه القويتين وهو يدندن مع الأغنية، ويغطّس يده في الماء الأحمر، قبل أن يعلقهم على الحبل. هممت بسؤاله عن الصور، لكنه تحرك من جواري وخرج إلى الدكان، سمحت اللمبة الصغيرة في الداخل بصناعة ضوء خفيف في الدكان، كأننا كنا في الليل، رغم النهار الذي يسرح في الخارج ولا نراه، رأيته يتجه ناحية جهاز تشغيل الأغاني، ثم يضع الأغنية المنتظرة، ودخل مرة أخرى

إلى البيت. كانت الأغنية تدور بإيقاع أسرع من المعتاد، تلف الموسيقا بسرعة مع صوت المغنية، الذي أصبح غير مفهوم أكثر. شعرت بصداع شديد، ولم أستطع تحمل الصوت، فوضعت يديّ على أذني، أصدرت الأسطوانة صريراً ممتداً، ثم فرقعة مكتومة، وتوقفت. فتحرك الرجل إلى الدكان، حركته صارت أبطأ، كأنه يدور في حلقات مع دماغي، أسندت رأسي إلى الحائط، وثبّته بقوة، ولمحت الرجل وهو يدبّ بيده على الجهاز، ثم يشد فيشته، ويعود ناحيتي.

ظل صوت الصرير يطن في أذني، يتمدد ويخرج من دماغي، أسمع صوت المغنية اللاهث، كأنها تغني لشيء آخر، كأنها تغني للموت، وكأن صوت قدميها يدب في الشارع، كانت تجري، ويجري خلفها كلب أسود، يحاول الإمساك بها، وهي تحاول النجاة بحياتها، بالطبع لن تفكر في الحب في هذه اللحظة، ستغني لحركة رجليها، لتحث نفسها على الجري، تشمر فستانها الأحمر اللامع بعد خروجها من الحفل، تمسكه بيديها، فتظهر رجلاها الطويلتان مكسوتان بجوارب شفافة كريستالية، ستركض، بالتأكيد في لحظة كهذه ستغني للمشي في الطرقات، للكلب الذي يطاردها، وبعد أن تيأس ستلتفت إليه، تستسلم لتوحشه المجنون تحت أضواء المدينة اللامعة، ستلهي نفسها عن الموت بتخيلها أنها داخل المسرح، ما زالت هناك أمام جمهورها الكبير، تقف وتضع يدها على عينيها، واليد الأخرى ستمدها إلى الأمام وتصرخ، فيخرج الصراخ عنيفاً ليكسر

اللمبات المثبتة في كل ركن، فيظلم الشارع الواسع، ويصدر أزيزاً حاداً يطن في رأسي، ويخرب جهاز الأغاني قبل أن يلتهمها الكلب مباشرة.

## -٤-

لاحظ الرجل تململي على الكنبة، فاقترب مني، وضع يده على كتفي وسألني: "تشربي؟". أفقتُ من شرودي مع الأغنية، ومددت يدي ووضعتها على يده التي على كتفي، تشبثت بها بقوة، وقلت له: "أنا جعانة".

سحب يده بهدوء، والتقط علبة سجائره على الكرسي الذي عليه فناجين القهوة، ثم أشعل سيجارة وهو ينظر إلى الأمام، وجلس على الكنبة تاركاً مسافة كبيرة بيننا، فأصبحت أنا في آخر الكنبة وهو في أولها، ندلّي أقدامنا إلى الأرض ووجوهنا لا تتواجه. نظرت إلى قدمي الحافيتين، ولم أستطع سد الهوة في الذاكرة بين وجودي في البيت المهدم وبين دخولي إلى غرفة الرجل، كيف خلعت الحذاء وأين وضعته، ولماذا جلست على كنبته، ولماذا كان واقفاً يصنع قهوتين، لن أشرب منهما شيئاً، أنظر إلى راحة قدمي وأصابعي الطويلة، وإلى راحة قدمه الكبيرة، والتي كانت نظيفة وملساء بشكل مثير للانتباه، ثم حركت عينيّ تجاه رِجله، كان يرتدي بنطلوناً رياضياً لونه كحلي، وتيشيرتاً أبيض بنصف كم، ويظهر

ساعداه بلونهما الفاتح ممتلئين بشعر أشقر، ثم يده الكبيرة تتحرك بالسيجارة إلى فمه. كانت السيجارة تنتهي بين شفتيه، يخبو لهيبها ويشتعل مع آخر نفس، والرماد يسقط على الأرض، أمسك فنجانه الذي كان يشرب منه منذ قليل، وغطّس السيجارة المنتهية فيه. ثم التفت إليّ كأنه لاحظ نظراتي تجاهه، وقال وهو يقطب حاجبيه: "الجهاز خرب، لازم أصلحه". رددت عليه بنصف ابتسامة وقلت: "معلش".

تحرك من مكانه، ثم دخل إلى غرفة نومه، أثنى جسده أمام السرير، والتقط حذاء من تحته، ثم رجع وجلس قربي، ارتدى الحذاء، ثم أمسك يدي بيده وقال: "أشتري أكل".

كانت مسكته قوية أكثر من اللازم، شعرت باهتزاز جسدي بسببها، فلم أرد عليه، نظر في عينيّ وسحب يده بنعومة، لم يترك يدي، بل سحبها بالتدريج حتى صارت أطراف أصابعه تلامس أطراف أصابعي، فشد عليهم مرة أخرى، فتواطأت معه، وشددت على يده أنا أيضاً.

ثم خطا ببطء ناحية الباب الصغير الذي قدرت أنه باب الحمام، فتحه، فظهرت درجتان من سلالم البيت الذي يقع فيه الدكان، كان هذا شيئاً غريباً علي، لأنني لم ألاحظ من قبل البيت الذي يقع فوق الدكان، خرج وأغلق الباب خلفه، ثم سمعت صوت تكتكة المفاتيح في القفل، فأصبحتُ محبوسة بين بابين مغلقين.

رغم ذلك، فإنني ارتحت لخروجه، كانت فرصة جيدة للتمدد على الكنبة، لراحة ظهري، فردت جسدي وشعرت بصلابة القطن

المصنوعة منه المرتَبة، كان مكدساً في أماكن وفارغاً في أماكن أخرى، حركت جسمي حتى وجدت وضعية تريح ظهري، وواجهني الطلاء الجيري الأبيض، والصورة المعلقة على الحائط، فوقفت مرة أخرى لأدقق النظر فيها، ولاحظت أن السيدة التي ترتدي الأسود تدير جسدها قليلاً إلى الجنب الآخر عكس اتجاه جسد الرجل، وهو والمرأة ذات الرداء الأحمر متجاورين، وينظران إلى الأمام بنصف ابتسامة، كان شعره يملأ كل رأسه، لكن نظرته ساذجة، لا تضاهي هذه النظرة الجميلة التي أراها عندما يقطب حاجبيه الآن.

سحبت الصورة من مكانها، وجلست على الكنبة ووضعتها أمامي، حاولت التأمل للوصول إلى أي استنتاج بخصوص السيدتين والعلاقة التي تربطهم جميعاً، لكنني لم أستطع، فتركتها مؤقتاً، ودخلت إلى غرفة النوم لآخذ الكاميرا من سريره.

كانت الكاميرا صغيرة الحجم، تضاهي حجم كف اليد، مصنوعة من معدن ثقيل. كنت أتحسس هذا المعدن كأنني أمسك صندوقاً سينفتح في أي لحظة، ويخرج السحر من داخله. لاحظت أنها قديمة جداً للدرجة أن بعض الأماكن في هيكلها كانت صدئة، وضعت الثقب الذي ينظر منه للتصوير على عيني، ودُست على الزّر، لكنه لم يتحرك، لم أرَ ضوءاً خارجاً من الكاميرا، ولم أسمع صوت الـ"تِك" الذي انتظرت سماعه، دُست مرة أخرى وأنا أوجه الكاميرا تجاه الصورة، لكنها لم تعمل أيضاً. شعرت بالضيق، وفهمت أن الرجل لم يكن يصورني، وأن الكاميرا أصلاً خربة وصدئة.

بحثت في الغرفة عن كاميرا أخرى قد تكون موجودة، استخدمها

الرجل في تصويري، أو لأجد الكروت التي تحمل صورتي وأنا مستندة إلى الحائط المقابل لدكان الرجل، لكن محتويات الغرفة كلها كانت مكشوفة، سرير وسجادة صغيرة لا أكثر، لا يوجد شبابيك ولا أحواض للتحميض ولا أي شيء آخر، حتى إنه لا يوجد دولاب يضع فيه ملابسه، لم تكن هناك ملابس في الأساس، هذه الملاءة البالية على السرير فقط. جلست على ركبتي لأبحث تحت السرير، فوجدت كرتونة صغيرة، مرسوم عليها قطع بسكوت، وحذائي جوارها، سحبت الحذاء من مكانه، وحاولت تذكر كيف وضع حذائي في هذه النقطة تحديداً، هل مثلاً دخلت الغرفة هنا بعد دخولي المريب إلى البيت؟ هل نمت على السرير؟ أم خلعت حذائي وتركته هنا فقط؟ كنت أرى نفسي وأنا ممددة على السرير، والرجل جواري أو ملتصق بي، وهذا أشعرني بالغثيان.

امتط الغثيان كأنه ثقب انفتح في بطني، وأشعرني بالإعياء، فأردت النوم، لكنني تجنبت أن يحدث ذلك على سرير الرجل، ورجعت إلى الداخل، وتمددت على الكنبة، وضغطت جسدي بقوة على المرتبة، وأحسست بشيء ما ينكسر تحتي، فقمت بسرعة، ووجدت أنني شرختُ زجاج البرواز الذي يغطي الصورة، فانقسم إلى قسمين، حاولت إلصاقهما بيدي، وتثبيتهما من الحافات، لكن دون فائدة، فعلقت الصورة مكانها، وتمنيت ألا يلاحظ الرجل ما حدث، ثم أخذت الكاميرا لأعيدها مكانها على السرير.

يحيلني الدخول إلى غرفة الرجل إلى ذكرى دخولي إلى غرفة المرأة، ونظرتها إليّ وهي أمام الباب، وظلال أقدامها الممتدة أمامي

على الدُرج، وضحكتها المهووسة وهي تمزق الروب، وتخيلت كيف ستكون ردة فعل الرجل عندما يراني على سريره، كنت أرى يده الكبيرة وهي تهوي على وجهي، أو جسده الطويل وهو يقترب مني بهدوء، فينظر نظرته العميقة التي سيوجهها إلى عيني مباشرة، ثم سيخرجني من غرفته وهو يمسك كتفي بيده، ويضغط بشدة حتى حافة الألم.

كان لا بد من الخروج سريعاً، وضعت الكاميرا مكانها على السرير، وانحنيت لآخذ حذائي، وتنبهت إلى وجود الكرتونة الصغيرة مرة أخرى، فسحبتها لآخذ كيساً من البسكويت، لكنني عندما فتحتها وجدت عشرة رزمات من النقود، كل رزمة مربوطة بإستيك، كانت متساوية في حجمها، عشر ورقات في كل رزمة، عددت واحدة منهن فوجدتها ألف جنيه، وحسبت أن هناك عشرة آلاف جنيه، فردت الرزمات أمامي، وبدأت العد: "١، ٢، ٣ ..."، لكن قاطعني صوت رنين التليفون الذي عكر الهدوء الرتيب للمكان، وتذكرت موعدي مع شباب السينما، وبالفعل، كان هو اتصالهم، أتاني عبر السماعة صوت فتاة تتحدث بسرعة، قالت دون أي تحية: "إنت فين؟"، تسألني عن مكاني وعن تأخري، جعلتني طريقتها المندفعة أتلعثم في الرد، واضطررت إلى القول لها إنني سأتأخر قليلاً، فقالت إنهم سينتظرونني في المقهى الذي يقع أمام السينما، ثم أغلقت السّكة دون انتظار ردي.

كنت أريد الخروج إليهم، لكن لا سبيل إلى ذلك، شعرت أن الرجل تعمد حبسي في بيته، يترك كاميراته ملقاة في مرمى بصري

حتى يستفزني، ليذكرني بالصور التي أخذها لي دون رغبة مني، لأنتظره وأظل أنتظر طعامه المر، هو مثل المرأة تماماً ينتظر مني إطاعة أوامره، لا بد أنهما اتفقا عليّ، هو الآن ينفذ ما طلبته منه المرأة، هو أيضاً يريد إذلالي ليثأر لامرأته، ولن أكون مندهشة إن عرفت أنه معها الآن. وددت لو امتلكت مسدساً لأقتلهما معاً. وقررت أن أرد له الصاع صاعين واسرق الكاميرا، خبأتها داخل بلوزتي، ووضعت البلوزة داخل البنطلون، سمحت البلوزة الفضفاضة بمساحة لإخفاء الكاميرا، لكنني شعرت أنها ستصنع نتوءاً ظاهراً إذا جلست، فحشرتها في جيب البنطلون، ثم أسدلت البلوزة الطويلة عليه، فغطت ما فوق ركبتي بقليل. ارتديتُ حذائي، ثم رتبت كل شيء في الغرفة وأرجعته إلى أصله، ووضعت رزمات النقود مكانها في الكرتونة، وأزحتها تحت السرير، ورجعت إلى مكاني على الكنبة، وجلست، وتأكدت أن البلوزة تغطي مكان الجيب، وأن الكاميرا محشورة جيداً حتى لا تسقط من مكانها. ارتحت قليلاً، وانتظرت عودة الرجل الذي تأخر، حتى شعرت أنه لن يأتي مطلقاً، وبدأت أفقد إحساسي بالزمن خارج هذه الغرفة الكئيبة. كان الوقت يمر ببطء والملل يستبد بي، تأتيني صورة الرجل وهو ينام مع المرأة داخل غرفتها في هذه اللحظة، ويحبسني هنا، وتخيلت كيف سأفر من هنا لأصعد درجات السلم، سأدخل البيت بهدوء، أتسلل إلى المطبخ وأنتقي السكين الحاد، وببطء أقف أمام الغرفة، أزيح الباب قليلاً لأشاهدهما متداخلين، أسمع صوت همهمتها، وأرى يده القوية وهي ترفع فخذيها، سأهجم في هذه اللحظة بالذات، قبل لحظة الذروة مباشرة، قبل صرختها ولهاثه

المسعور، أنقض على ظهره بالسكين وأتركه مرتخياً داخلها، وأقف أمامها لأرى الرعب في عينيها، ثم أخلع السكين من ظهره، وأغرسه في منتصف صدرها ليشق العظام، فيصدر حشرجة، ويهمد الجسدان معاً.

أكلتني خيالاتي، وزادني الانتظار شعوراً باليأس، كل ما كنت أريده في هذه اللحظة أن أضع رأسي على المخدة، أن أمدد جسدي ليرتاح إلى الأبد من كل شيء.

لكنني عدت إلى غرفة النوم، لا لأنام، لكن لأسحب الكرتونة من تحت السرير، ثم أسحب ورقة من كل رزمة، ليصبح لدي عشر ورقات، يعني ألف جنيه، طبقتهم ووضعتهم في جيبي الآخر، وعُدت مرة أخرى إلى مكاني، وتمددت على الكنبة ونمت.

لو نمت في هذه اللحظة، لحلمت أنني أفرد ذراعي وأطير فوق سماء القاهرة.

بعد وقت لم أستطع تقديره، سمعت صوت الدكان ينفتح من الخارج، فصحوت ومشيت بحرص إلى الرجل الذي كان يفترش جورنالاً أمام منضدته القصيرة، ويضع فوقها سمكتين كبيرتين مقليتين، وعلبة سلطة ورغيفين، كانت رائحة التانة في الخارج تختلط برائحة السمك المقلي أمامي، وخيال المرأة يطل أمامي، صوت تحرك فمها في المطبخ، ونظرتها التي تبرق وتنطفئ، وتذكرت شكل سمكتها مقطعة دوائر في الطبق الأزرق، والدود يسرح من حلقاتها على خشب المنضدة، وكلماتها عن "س" الذي أتى لها بسمكة كبيرة، الآن أتأكد أن رجلي هذا هو "س"، و"س"

هو الرجل المجهول، وهما الاثنان يتواطآن بمعرفتهما عني، في محاولة للعب والتسلية. هو كان معها منذ قليل، وأتى الآن بعد أن أكل منها وشبع. لم أتمالك نفسي، وشعرت برغبة قوية في القيء، حاولت التماسك لكنني لم أفلح، فسألته بسرعة: "فين الحمام؟"، فأشار إلى ستارة جلدية معلقة بمسمارين في ركن الدكان، فتخطيتها، لأجد حوضاً صغيراً إلى جواره قاعدة حمام فوقها زجاجة ديتول، لم أستطع التماسك، فتقيأت على الحوض، وأكملت في القاعدة، كان تفكيري منصباً على الرجل في الخارج، الذي يسمع صوتي المريض، وكيف أن هذا سيشعره بالقرف، كنت مريضة لدرجة أنني كنت أفرغ جسدي، لا الفتات القليل الذي خُزِّن في أحشائي منذ الليلة الماضية. عندما انتهيت شعرت أن الكاميرا تنزلق من جيبي، وتكاد أن تسقط على الأرض، فثبّتها جيداً في الداخل، وتأكدت أن النقود أيضاً لم تسقط، ثم ملأت الماء في إناء بلاستيكي أحمر وجدته على الأرض، وحاولت تنظيف آثار القيء على الحوض وعلى القاعدة، مستخدمة الديتول للتغطية على الرائحة الكريهة.

عندما خرجت وجدت الرجل مكانه يأكل من السمكة التي أمامه، نظر إلي وقال: "هحاول أشغل الجهاز". قلت: "لازم أمشي". قال: "طيب".

ثم تحرك بهدوء ولف السمكة الأخرى في الجورنال الذي كانت عليه، ومد يده إلي وقال: "خديها".

لم أرد عليه، وتركت يده ممدودة بالسمكة، وتحركت إلى الخارج. مشيت بضع خطوات أمام الدكان، وحاولت أن أكون

مسـرعة رغم الإعياء الذي يصيبني، والتفت إليه، فوجدت يده ممدودة كما هي، واجهتني عيناه، ولم أعِ بالضبط كيف كانت نظرته في هذه اللحظة، لكنني حاولت الابتسام.

## -٥-

لماذا لم أنتبه للشوكة التي كانت في جنبي وأنا أمشي من دكان الرجل نحو الأصدقاء الجدد في المقهى؟ ربما عدم الانتباه إلى الخوف الصغير هو الذي جعل ما حدث مرعباً، والرعب مختلف بطريقة طفيفة عن الخوف، أعي ذلك جيداً، ذلك الشعور الذي تصاعد وكنت أتصاعد معه مدفوعة بنشوة غريبة، أقول لنفسي الآن إنني كنت مدفوعة بنشوة الفريسة قبل أن تقع في الشَرَك، متخيلة أنني كنت أذهب لأصطاد، لا لاصطيادي.

يتحرك الشارع معي بنعومة، أحياناً أستند إلى حقيقة أنني موجودة، ولا شيء أكثر من ذلك. يزداد شعوري بالجوع، فأعرف أن لي جسداً، وهذا الجسد له بطن جائع، أحياناً أحاول تجميد الجسد كله، أستند إلى حاسة الوجود فقط، أن أفتح فمي للأكل والشرب، أقف لأنظر إلى نفسي في زجاج أحد المحال، بصدق أحياناً لا أتعرف نفسي، وأنني التي تطل من هناك. أحياناً أفزع لوجود شخص غريب يحدق، وأحياناً أخرى أعمل اتفاقاتي حتى أندمج في هذه التي تقف بعيداً، كأنها تقترب مني فجأة وتربت على كتفي، وتقول لي إنها تفهم جيداً

ما يحدث، وإننا لا يمكننا إلا التحرك.

التحرك نفسه يأتي بغير إدراك الحركة، كأن يداً تدفع من الخلف، دفعة قوية، وهووووب، أجد نفسي لا أستطيع التوقف. في الوقت نفسه أدرك هذه اللا استطاعة، وأمر في الشارع الطويل، بهذه الحركة المندفعة، أجدني أقف على رصيف ما، أراقبني في اللحظة نفسها بشكل مضحك، أشعر أنني مرآة داخل مرآة داخل مرآة، إلخ. حتى إنني لا أعرف أين هي نسختي الحقيقية من الموضوع كله. هذا يبدو مأساوياً لبعضهم، لكنه مضحك بالنسبة إلي، كل الأشياء تبدو مضحكة بالنسبة إلي، حتى أكثرها عنفاً ودرامية للآخرين، بعد وقت تتحول إلى نكتة كبيرة في داخلي، ثم أسمح لها بالخروج إلى السطح، والطفو حتى تصبح نكتة حياتي الكبيرة، حتى تحل محلها واحدة طازجة وأكبر، وهكذا دواليك.

وما هي نكتتي الجديدة؟ هذه المرأة التي تجلس على كرسيها وتسلق دماغي بعيني ثعلب، ورجلها ذو العينين العميقتين؟ الذي ضحك عليّ؟ ههه، جسداهما المتمرغان في الدماء كما أحببت أن أراهما، لقد أصبحت نكتهما كلها ماسخة وتافهة، أعرف أن هناك نكتة أكبر تتقدم، وأن هناك عيوناً أخرى بانتظاري، يكون معها الثمن على قدر الخطورة. أرى الرجل الآن يجلس مكانه بالهدوء نفسه، يشغل أغانيه المملة، ويقول: "اتغيرتي؟"، "نعم يا سيدي تغيرت"، "في يوم وليلة؟"، فأضحك ضحكة ممطوطة رقيعة، تلك الأسئلة الغبية لا تستدعي سوى هذه الضحكات، ثم ألقي له قبلة في الهواء، وأتركه وأمشي.

يتحرك الشارع معي، وأنا أتحرك معه، نحن صديقان حميمان، ألقي ذراعي فوق ذراعه، أتأبطه ونسير، الكاميرا في جيبي، والنقود في الجيب الآخر، وجوعي في بطني، يتحرك مثل دودة، فأصبح أنا والشارع ودودة الجوع أصدقاء، لا أستطيع أن آكل حتى لا أضيّع أحد أفراد الرفقة. ثم، ثم ماذا؟ آه، كنت أمشي بخطواتي الواثقة، أرى العيون اللامعة المحدقة من بعيد، وأضحك، الآن الضحك صديق رابع، أحثه أكثر على التعبير عن ذاته، فأضحك وأضحك، وأشير إلى الأجساد الملتفة حول منضدة وحيدة مشغولة أمام المقهى.

في هذه الساعة كانت الشمس تغطي أجسامهم المنحنية فوق الكراسي، والرطوبة تخنق الهواء، أشاروا بترحاب فأشرتُ أيضاً، كان هناك شابان وفتاتان، تعرفت على فتاة البرتقال، وبالطبع فإن الفتاة الأخرى هي التي كانت معنا في السينما، وتعرفت على الشاب أيضاً، لكن الشاب الآخر لم أكن قد رأيته من قبل، كان أنيقاً بشكل مبالغ فيه، ولديه شامات كثيرة موزعة على وجهه، عكس شاب السينما المبعثر في هندامه، وفهمت أن لكل فتاة شاب، وقررت أن أخترع لهم أسماءً، شاب السينما أطلقت عليه اسم مستر إكس، والشاب الآخر أسميته أبو شامة، أما الفتاتان فواحدة هي البيضاء والأخرى السمراء، وتجنبت مناداتهم طوال حوارنا، محاولة طيلة الوقت ترتيب الأحداث والاحتفاظ بأسمائي في دماغي.

كانوا منهمكين في حديث طويل عن الفيلم الذي كنا نشاهده، وكان الجدال يدور حول دور البطلة، التي اعتبرتها البيضاء ممثلة مفتعلة، لكن مستر إكس والسمراء اعتبراها جيدة جداً، كانت

وجوههم منتفخة من الانفعال، وصوتهم عالٍ، يتحدثون ثم يلتفتون ناحيتي فأهز رأسي، كنت أنا وأبو شامة صامتين، ولاحظت أنه يوجه بصره ناحيتي، رغم أن السمراء تجلس جواره، حدقت إلى عينيه كما يفعل، ركزت معه في مجال بصري، ووضعت يدي على خدي، أوهمته أنني أتماهى مع نظرته، ثم ضحكت، فارتبك.

انتهى الحديث فجأة، وكان الجميع صامتين، فنظر إلي مستر إكس، وضع يده على كتفي، وقال: "وإنتي إيه رأيك؟"، كان السؤال ليس له معنى بالنسبة إلي، خاصة أنني لم أر الفيلم، كنتُ نائمة، وكنت متخيلة أنه يعرف أنني كنت نائمة، وفي هذه اللحظة الحرجة وكل العيون موجهة ناحيتي، لم أستطع أن أصدمه، لكن المعركة كانت اثنين ضد واحد، فقررت الانضمام إلى البيضاء حتى تتعدل كفة الميزان، وقلت بصوت هادئ وقوي: "متهيألي إنها كانت منفعلة". ضحكت البيضاء وصفقت بيدها علامة على الانتصار الوهمي. فقال مستر إكس: "طيب، اتنين لاتنين"، وضحكنا جميعاً.

أخرجت الكاميرا من جيبي، ووضعتها على المنضدة، وقلت لهم: "كاميراتي الجديدة". صفّر أبو شامة صفيراً مطولاً علامة على إعجابه، وقال إنها "تحفة". التقطها من أمامي، وداس زر التشغيل، فلم تعمل الكاميرا معه، فأعطاها إلي لأشغلها، فقلت له إنها تعطلت، ولا أعرف كيف أصلحها، قالت الفتاة السمراء إنها تعرف رجلاً يصلح كاميرات التصوير، وعرضت علي مصاحبتي إذا أحببت الذهاب، فوافقتها، واتفقنا مع الشباب أنني سأذهب معها لتصليح الكاميرا، وقالت البيضاء إنها ستذهب مع مستر إكس إلى

البيت لترتيب جلسة لنا، أما أبو شامة فقال إنه سيجلس هنا لينتظرني أنا وفتاته، ويأخذنا بسيارته.

كانت خطوات الفتاة السمراء واسعة، تتحرك بأريحية في الشارع كأنه بيتها، تمضغ علكة طوال الوقت، ولا تتحدث كثيراً، شيء ما فيها ذكرني بالمرأة، قد تكون مشيتها الواسعة. في القاهرة الكل يشبه الكل. في وقت من الأوقات كنت أتخيل أن الجميع يشبهني، وأنهم يتكلمون بالطريقة نفسها، ولهم الدماغ نفسه، بعد وقت فهمت أنني رغم كل الصور التي احتفظ بها الجميع في رؤوسهم عني، فإنني بالغ الأسف لا أشبهها، ولا يشبهني أحد.

تتحرك الفتاة السمراء بخطوات أوسع مني، وأنا حافظت على المسافة بيننا، كنت منجذبة لطريقتها السريعة في المشي، كنت أتبعها، وأتركها تسبقني بخطوات، فأمد قدمي ولا أرى الشوارع، أراها هي داخل الشوارع، دارت بي من شارع إلى آخر وسط البلد حتى دخلنا شارع شريف. في وسط الشارع كان هناك محل يضع فاترينة مليئة بالكاميرات، فدخلت السمراء لتسلم على الرجل السمين الذي كان هناك، بدا أنه يعرفها من سلامهما الحميمي، فتحت يدها وقالت: "هاتي الكاميرا"، جذبتها مني كما جذبت البرتقالة، وأعطتها الرجل، تفحص الرجل الكاميرا من كل الاتجاهات، ووجه إلي الكلام: "إيه المشكلة بالضبط؟"، هززت كتفي، فضحك الرجل، وقال: "تعالي". وأشار إلى زر صغير جداً جوار العدسة، وأردف: "شوفي، لازم تدوسي هنا الأول، كدة، وبعدين تصوري". هززت رأسي، فضحك مرة أخرى، وتابع: "لو تحبي تبيعيها أنا ممكن أشتريها". سحبت منه

الكاميرا واجبته: "لا، شكراً". هممت بالخروج من المحل، فنادتني السمراء، وقالت: "هاتي عشرين جنيه". أخرجت رزمة الفلوس من جيبي، وسحبت مئة جنيه، أعطت هي بدورها الرجل النقود، وقالت له: "خذ ١٥".

بالفعل، أخذ الرجل ورقة النقود، وضعها في درجه، وعد خمسة وثمانين جنيهاً أعطاهم الفتاة السمراء، هي سحبت منهم عشرين جنيهاً، أخذتهم استحقاقاً منها إلى نفسها من أجل المشوار، وأعطتني البقية، فوضعتها بدوري في جيبي، وخرجت من المحل أنتظرها. دست الزر الذي نبهني الرجل لوجوده، والتقطت صورة للفتاة وهي تخرج من عنده، ظهر وجهها من عدسة الكاميرا كبيراً، وشعرها المجعد متطايراً على عينيها. فرحت بالتقاط الصورة، وتأكدت أن لي صوراً في الداخل.

-٦-

يد كبيرة تفك السيجارة، تخرج التبغ وتبعثره على ورقة بيضاء، ثم تخرج قطعة حشيش تحركها فوق النار، تفركها بالتبغ، وتستمر بالفَرك حتى يتجانس الخليط الصلب، ثم تبدأ اللف داخل ورق البَفرة، تصنع اليد سيجارة طويلة محشوة، وغير ملفوفة بشكل جيد.

يشعل مستر إكس السيجارة، ويستنشق الدخان بعمق، ثم يخرجه من فتحتي أنفه، وتظهر على وجهه علامات الانبساط، يمرر السيجارة إلى البيضاء، فتشد نفساً إلى الداخل، وتمرر بدورها السيجارة إلي، أفعل كما يفعلون، فأشعر بالحشيش يدخل جوفي، أبتلعه، فتقلص معدتي أكثر، أمرر السيجارة إلى السمراء، فتمررها إلى أبو شامة، حتى تكتمل الدائرة وتبدأ واحدة جديدة.

بيتهم معتم أكثر من اللازم، يعتمد الشباب وجود لمبة صغيرة زرقاء في مدخل البيت، جوار الباب وضعت بعض المساند الدائرية المصنوعة من القطن على الأرض، وأمامها وضعت منضدة قصيرة، وهناك غرفة واحدة جوارها. المطبخ الصغير

مصمم على الطريقة الأميركية، وإلى جواره الحمام. يسود الظلام، وتتحرك كأشباح، ظلال زرقاء ممتدة خارج الأجسام الأصلية. تدور سيجارة الحشيش، وأشعر أنني بدأت الانقسام بحدة، أنا مندمجة معهم، وأشاهد من بعيد في الوقت نفسه، قد يكون الحشيش هو من يفعل ذلك، أفكر في أنهم جميعاً لديهم الشعور نفسه بالانقسام، وأننا هنا مندمجون، وأن أجسادنا الأخرى تقف لتشاهد ما يحدث.

يفتح أبو شامة كمبيوتراً مركوناً إلى الأرض، ويشغل أغنية صاخبة، يزداد إدراكي بأنني خطوت من بوابة أخرى لا أعرفها، كانت أغنية واحدة مجهولة، والآن أغانٍ، يتصاعد صوت الموسيقا، ويتكلم أحدهم: "أهلاً بالجميع"، أسمع الجمهور يصيح: "هووووو". يبدأ الشخص نفسه بالكلام، يتداخل صوته في الموسيقا، يأتي صوت الموسيقا كأنه صدى، أو كأنه المسافة بين الصوت وصداه. تُلَفّ السيجارة، وتقع في يدي مرة أخرى، والدخان يعبئ المكان، اصنع دخاناً كثيفاً وأنا أشرب السجائر عادة، يدخل الحشيش إلى دماغي، أشعر أن الموسيقا تأتي من رأسي، ويبدأ الصوت بالارتفاع، خبطات متوالية، وصوت آلي، فأضحك، يقف أبو شامة وسطنا، ويفرد ذراعيه، ويصيح:

."I like it when you sleep, for you are so beautiful yet unaware of it"

ثم يقولها بالعربية: "أحبك حين تنامين، لأنكِ شديدة الجمال، ولا فكرة لديكِ".

يضع مستر إكس يده على وجهه، ثم يرفع وجهه تجاه أبو

شامة، أرى عليه علامات التأثر، لكنه فجأة ينفجر في الضحك:
"أما تنام معاك يا برنس".

فننفجر كلنا ضحكاً.

هذه اللحظة لم أشاهدها من بعيد، كأنها قربت المسافة بيني وبيني، كنت أندمج معي بطريقة كاملة. وأشعر ببهجة كاملة لوجودي معهم، فالأرواح تهفو إلى الأرواح، والسّكة مغوية، هذه هي الحكمة التي تعلمتها هنا في هذا البيت. أحب أن أطلق عليه بيت الأشباح الزُرق، بعد خبطات متوالية على الدماغ بسبب سؤال "لماذا"، تأخذني هذه الـ"لماذا". "لماذا" تتحرك بي من سكة إلى أخرى، من طريق مخيف إلى آخر موحِش، لأجلس في النهاية وأعرف أن "لماذا" مستقلة بذاتها، وأنك إذا بدأت بجرها خلفك، فستجر معها التاريخ كله، وأنا أصرّ على الشّد "لمااااااذاااا"، فأجدني أحمل كومة من نفايات الآخرين فوق ظهري وفوق دماغي، أقول لنفسي دعيها وشأنها، إن الأرواح تنجذب إلى الأرواح، طبيعي، والسكة مغوية، وهذا مفروغ منه.

رفعت الكاميرا، وصورت أبو شامة، ثم بدأت تصوير الجميع، كانوا يضحكون بطريقة هيستيرية، ويتكلمون عن أشخاص لا أعرفهم، فلان الذي قال كذا وكذا، وفلان الذي صاحب فلانة، وفلانة التي كتبت كذا على "فايسبوك"، وهذا معناه أنها تشتم فلانة، يدور الكلام حتى تنتهي السيجارة، فتبدأ اليد مرة أخرى فرد التبغ ومزجه بقطعة من الحشيش، ثم تصنع سيجارة أكبر من السابقة، تمرر اليد السيجارة إلى اليد التي تجلس جوارها،

وهكذا حتى تنتهي مرة أخرى. تذهب السمراء إلى المطبخ، وتعود بزجاجتي بيرة مثلجتين، تفتحهما وتضعهما في المنتصف، نتقاسم البيرة معاً، من يأخذ نفساً من، السيجارة يتبعه برشفة من الزجاجة الخضراء، وهكذا، يوضع الجبن والخبز أيضاً، ترتاح الأجساد وتثقل كتلتها، ثم تبدأ بالتمايل تجاه أجساد الآخرين. وضعت الفتاة السمراء رأسها على كتف أبو شامة، والبيضاء فردت نفسها واضعة رأسها في حجري، ومستر إكس ما زال يدخن ما تبقى من سيجارة الحشيش، ويبتلع البيرة من الزجاجتين.

أجد نفسي مجبرة على الجلوس بالوضعية نفسها حتى لا أزعج البيضاء التي تتخذني متكأً، ينظر إلي مستر إكس وينفجر ضاحكاً، ويقول بصوت غليظ محاولاً تقليد صاحبه: "أحبكِ حين تنامين، لأنكِ شديدة الجمال، ولا فكرة لديكِ"، يقولها فنضحك معاً بشدة.

هو يمسك قدم البيضاء ويدغدغها، فتبتسم ورأسها في حِجري، يطقطق إصبعيه ويقول لها: "تعالي نام".

يقف ويشد ذراعها معه، فتقوم نصف غافية، يضع يده حول خصرها، ويدخلان الغرفة، أعرف أنه أخذها إلى الداخل ليضاجعها، هذا بالطبع يستدعي لدي مشهد المرأة والرجل، فأحس برعشة تسري في ظهري المتصلب من الجلوس، أتردد في التمدد على أرضية المكان، لكن بنظرة واحدة للأجسام المرتخية جواري، أشعر أن هذا هو مكان النوم الطبيعي، أتمدد تاركة رأسي يمس رأس أبو شامة، وقدمي تمس رأس السمراء،

ثلاثتنا نتلامس، كل رأسه مع قدم الآخر، كنا نصنع مثلثاً أزرق وخامداً من الطاقة.

في منتصف النوم أيقظني صداع شديد، فقمت لأشرب، أدركت أن شيئاً ما ينحشر في حنجرتي، سعلت لأختبر ما يحدث، فخرج صوتي بحشرجة متقطعة، لم أستطع التكلم حتى لا أوقظ الآخرين، كنت أريد تجريب حنجرتي، لكن لا سبيل، في الصباح سأعرف أنني فقدت صوتي بسبب الحشيش، وأن عليّ الانتظار أياماً حتى يعود إلى حالته.

دخلت الغرفة، فوجدت مستر إكس والبيضاء ممددين جوار بعضهما بعضاً، بكامل ملابسهما، كان الشباب بصفتهم أصحاب المكان يفترشون مراتب مرصوصة جوار بعضها بعضاً، اتخذت مكاناً جوار النائمين، أزحت يد مستر إكس، ونمت محاذاته، تبعني أبو شامة والسمراء، فكنا نحن الخمسة نرقد متجاورين.

في الصباح استيقظت على صوت صراخ يأتي من الخارج، ميزت صوت مستر إكس والسمراء، كان صوتها يعلو، وهو يصرخ في وجهها: "يا قحبة". نظرت إلى البيضاء، فوجدتها منشغلة بالنظر إلى هاتفها، غير مبالية بالذي يحدث في الخارج، وأبو شامة مستغرق في النوم، حاولت التكلم، فخرجت حشرجات من حنجرتي. سمعت السمراء تقول: "اشبع بيها"، ثم دخلت إلى الغرفة ووجهها أحمر من الانفعال، لكزتني في ذراعي، وسحبت شيئاً من تحت المخدة التي كنت أنام فوقها،

ثم خرجت وهي تسبه بأمه وأبيه، دخل بعدها مستر إكس إلى الغرفة وهو يقهقه، نظرت إليه البيضاء بطرف عينها وهي تبتسم نصف ابتسامة. فجأة، فتح أبو شامة عينيه وقهقه: "خلصتوا؟"، قالها، فضحك الجميع. وحدي كنت أشاهد ما يحدث، لكن ضحكاتهم استمرت، تحولت إلى هيستيريا، ونقلت إلي العدوى، فضحكت دون فهم، ابتلعت هذه الضحكات المجنونة ما تبقى في حنجرتي من صوت، وددت أن أقول لهم كفى، لكنني كنت غارقة في النوبة التي أصابت الجميع. تنبهت لصوت الكاميرا موجهاً ناحيتي، كان مستر إكس قد سحبها من مكانها، والتقط لنا صوراً ونحن جميعاً نفتح أفواهنا إلى آخرها، هو اول من ضحك، واول من هدأ أيضاً، قلت له: "لا، لا تصوروني!"، لكن صوتي لم يخرج، أتكلم فتتحرك شفتاي فقط، ويصدر فحيحاً ضعيفاً. كان هذا مدعاة لهم إلى الاستمرار مرة أخرى، يضحكون عليّ، ويشيرون جميعاً إلي، تتلوى أجسادهم أمامهم، أنا أيضاً كنت أتلوى معهم.

اختبرت صوت الضحك دون صوت، كيف أقول "صوتاً دون صوت"؟ لكنه كذلك، قهقهة صامتة، مجلجلة، تهز وجهي وجسدي، لكنها خرساء، لوهلة كنت أسبقهم جميعاً في الفعل، أضحك أكثر منهم، ثم أصبحت أتخطاهم، هم سكتوا، تحركوا إلى أماكنهم، وأنا ما زلت أضحك، في هذه اللحظة تذكرتُ مغنيتي المجهولة، أتت من منطقة بعيدة كأنها ذكرى من الطفولة، وفكرت، ماذا لو فقَدت هذه المغنية صوتها مثلي،

كيف سأسمعها، أم إنني الوحيدة التي سأقدر على سماعها، تعبر بواسطتها الموسيقا إلى رأسي، حينذاك لن يهمني عما تغني، سأقول لها ذلك، قولي "amour"، قولي أي شيء تريدينه، وأنا سأكون موجودة.

## -٧-

انتبهت لفرجتهم عليّ، أجلس ووجهي منفوخ من الضحك، وصوتي يخرج على هيئة ذبذبات، والشباب يجلسون أمامي، واضعين أذرعهم على صدورهم، وعلى وجوههم نظرة "خلاص خلصنا"، لكنني لم أنتهِ، وددت لو قلت لهم ذلك، دعوني أضحك. في اللحظة التي اختلطت فيها صورة المغنية بوجه المرأة من جديد أمامي، استطعت أن أتوقف.

جلسنا جميعاً في الصالة، وأكلنا المتبقي من الجبن والخبز من ليلة أمس، بدأت أشعر أن رائحتي نفاذة من العرق، ورغبت في الاستحمام، لكنني لم أشعر بالراحة الكافية للاستحمام في هذا البيت. نظرت إلى الشباك الصغير الموجود في الحائط، فوجدت أن النهار قد أوشك على الانقضاء في الخارج، رغم توهمي أننا استيقظنا في أول الصبح.

سألتهم عن السمراء، لكن لم يعر أحد منهم اهتماماً بصوتي الضائع، ففضلت الصمت. بدأ الدخان يملأ المكان، دخان السجائر غير المحشوة هذه المرة، أخذت حصتي منه، وشعرت برتابة الأمر،

وبالفرق الواضح بين خبطات الحشيش الممتعة ولسعته في النافوخ، وبين نفس السيجارة الباهت الذي كنت أحسبه قبل يوم واحد مخلوقاً لتعديل المزاج. كنت أريد حشيشاً رغم حنجرتي المشروخة، وأظنهم أيضاً كانوا يريدون. بدأت أشعر بالراحة في البيت، واستكنت قليلاً إلى الحائط، وغفوت مجدداً. ثم سمعت صوت البيضاء تتكلم مع مستر إكس، وتقول له إنها تود الخروج، شعرت بخطواتهما وهما يخرجان من البيت، ويقولان لي: "ابقي كلمينا".

وجدت نفسي وحيدة في البيت، لم أعرف أين ومتى ذهب أبو شامة أيضاً. فكرت في أن وجودي هنا أفضل كثيراً من العودة إلى بيت المرأة، وأنني بالفعل أشعر بالراحة في البيت الجديد، على الأقل اجد من اتحدث معه، وفكرت أن اعرض عليهم المساهمة في الإيجار مقابل وجودي معهم، وانهم قد لا يقبلون أصلاً النقود، فوجودي لن يضيف او يثقل كثيراً. وشعرت بالأمل وأنا اتخيل حياتي بعد الانتقال إلى هنا. وفكرت فعلاً في الذهاب مباشرة إلى البيت لآخذ حقيبتي وأشيائي، وأنني سأمر إلى السوق، وسأنظر إلى الرجل في عينيه، سأجعلها نظرة احتقار، أو نظرة انتصار، "معي كاميراتك يا برنس، ضحكت عليك، خدعتك كما خدعتني، والآن ماذا ستفعل، لا شيء". يعلق صور عشيقاته، ويقول لي أمي وأختي، يصطادني أمام دكانه بسيجارة، وأنا أبتلع الطعم وأذهب إلى بحره، وأترك يده تمسك يدي، سأخرج له لساني، وأذهب إلى المرأة، ألمّ أشيائي من الغرفة، ثم سأدخل غرفتها، وأكسر مكتبها، وأمزق كل دفاترها الغبية، "سأتركك لتعفني وحدك، وتأكلي أرزك الذي لا

ينتهي، يا امرأة الأرز، يا إوزة بوجه ثعلب". سأقول لها: "هيا نفتح بطنك الجميل، لنرى أكوام الأرز وهي تنزلق إلى الأرض، صانعة تلالاً تكومين فوقها، وتتعفنين وحدك". قد أمر أيضاً في رحلة خروجي إلى الرجل مرة أخرى، أدخل الدكان، وأشد الأسطوانة المجهولة على جهازه الخرب، سأقول له: "هذه لي، باي باي كوكو"، وأفرّ.

يساعدني الصمت المفروض على تشغيل دماغي، والذهاب إلى الأماكن التي أريدها، أردت أن أسمع موسيقا، فشغلت الكومبيوتر، اشتغلت أغنية أمس، صوت الرجل نفسه الذي يحيي الجمهور، والصوت المعدني يردد الصدى في صدري، فعلاً يقول: "أحبك حين تنامين، لأنكِ شديد الجمال، ولا فكرة لديكِ"، يقولها بعنف لا بحب، أو قد يكون عنف الحب، أتذكر مستر إكس وهو يقول: "لتنام معك يا برنس"، فأضحك، قد يبدو كلامه صحيحاً، أحياناً يُهيأ لي أنه يكفي النوم بعمق جوار جسدٍ آخر لتقع في حبه.

يعلو صوت الموسيقا بعد كل كلمة يقولها المغني، فيعلو صوت الجمهور الذي يظهر لي أنه غفير من تلاحم صوته، تشبه هذه الموسيقا المخدر، تجعلك تتحرك معها، تمايل بهدوء، أو تخلع ملابسك، تنثرها وترقص. تنتهي الأغنية وتبدأ واحدة جديدة، باللغة الإنكليزية أيضاً، الصوت فيها أعنف من السابق، ضربات قوية على الأوتار، والمغني يصرخ: "love hurts, love scares"، أوووه بيبي، إنه مخيف حقاً. أتحمس مع الصوت المجروح، وأبدأ الصراخ معه، صراخ صامت ينبع من الأعماق.

أقرر الاستحمام في حمام هذا البيت، أرفع الصوت إلى آخره، وأدخل إلى الحمام، أترك الباب مفتوحاً، وأخلع ملابسي، وأنزل تحت الدُش. يأتيني صوت المغني مبحوحاً مثل صوتي، أفهمه جيداً، أفهم صراخه المبحوح، "أنا صغير، أعرف ذلك، لقد عرفت الكثير، عرفت أكثر مما تحتملون"، وأبكي، فتنهمر الدموع مع الماء. صورة مستهلكة، لكنها تحدث، والحب يخيف ويجرح، نعم، وينبت جلوداً جديدة على اللحم العاري، الذي سلخته الأيام، نعم، معك حق، أعرف أن هذا ليس حقيقياً، لم يكن يوماً حقيقياً، أنتم فقط تصدقون، وتعلو الموسيقا، هُوووو هوُ هو هو، إنها فقط كذبة، كذبتي الكبيرة الممتدة، أنتم تصدقون أنها ليست مشكلتي، هيا نكذب لنعيش، love hurts، هُوووو هُو هُو.

تنقطع الكهرباء فجأة، فيخمد الصوت، بعده بثوانٍ تنقطع المياه أيضاً، ألف بشكيراً كبيراً أجده في الحمام على جسمي، وأخرج إلى الصالة.

يتساقط الماء من شعري على وجهي، ومن وجهي إلى صدري، أمامي أرى أبا شامة ممدداً جوار الكمبيوتر، لا أعرف متى ذهب ومتى رجع، ينظر إلي تلك النظرات التي رأيتها في المقهى، ويبتسم: "أحبك حين تنامين معي، نعم، نعم، لا داعي لأنكِ شديدة الجمال تلك، ستكون جملة زائدة في هذا السياق".

لففت البشكير أكثر حول جسمي، أحكمت إغلاقه، حاولت التراجع إلى الحمام، لكنني جبنت، خفت اتهامه لي أنني جبانة، فتقدمت وجلست جواره، التقطت السيجارة التي كانت في فمه

ودخنتها، شعرت أن الدخان يلتصق بجلدي مع الماء، سحب أبو شامة السيجارة من فمي ودخن المتبقي منها، ثم أطفأها على البلاط، كان يتصرف بطريقة أقرب إلى تجاهل وجودي، أو بالأحرى تجاهل وجودي بجسد عارٍ ومبلل تحت البشكير جواره، هذه اللا مبالاة دفعتني أكثر إلى التحرك تجاهه، حفزته بنظراتي، في لحظة ما، بعد إطفاء السيجارة مباشرة، التفت إليّ، ومرر أصابعه على شفتي، تماشيت مع تحركاته بدافع الفضول لا الرغبة، أو بوصف أدق، كنت فضولية تجاه إحساس الرغبة، لم يتحرك شيء في داخلي، فمددت شفتي لأقبله حتى أحرك نفسي، قبلته كانت باردة، أدخل يده تحت البشكير ووضعها على ظهري، ثم على صدري، في هذه اللحظة تحديداً أردت الضحك، قلت له: "توقف"، لكنه لم يسمعني، وجدت نفسي أقف بعيدة مرة أخرى، وأشاهد المشهد الكوميدي، الرجل كان يتحرك فوقي، كان في داخلي، وأنا أنتظر أن ينتهي كل هذا لأضحك، بحركات سريعة لا تشبه زخم مشهد المرأة مع رجلها.

ينتهي أبو شامة، يرفع بنطاله، ويتمدد جوار الجسد العاري، لا يرفع الفخذين، لا يصرخ، لا أصرخ، أود الضحك أكثر من أي وقت مضى. كنت أنتظر عودة الكهرباء ليكتمل الكليشيه، فتعود الموسيقا هنا، وتنهمر المياه في الحمام، لكنها بالغ الأسف لا تعود، ولا يعود مستر إكس، ولا البيضاء، يغط الغريب في النوم جواري، يفتح فمه الكبير ويبتلع الهواء، أدخل إصبعي داخل فمه لأرى عمق اتساعه، أدخله وأخرجه وأضحك، هو لا يحس ولا يرمش له جفن. أجد نفسي مجبرة على ارتداء الملابس المتعرقة، رائحتي ازدادت عطانة، لكنني

تمددت على الأرض جواره، لوهلة سرحت ورحت أشاهد الأخرى التي تشاهد من بعيد، قلت لها: "شفتي؟"، فضَحكت، وضحكتُ، شيء جيد أن يفقد الإنسان صوته، حتى يستطيع أن يتكلم مع نفسه دون أن يقدر الآخرون على سماعه، قالت لي: "نامي"، أغمضت عيني، لكن لا أعرف لماذا جاءت إلى ذهني صورة الرجل أمام دكانه، نظرة عينيه العميقتين، ويده وهي تشد على يدي، كان يصورني وأنا مستندة إلى الحائط، قلت لنفسي إنني كنت سعيدة في هذه اللحظة.

## -٨-

ظلت الكهرباء مقطوعة، حتى أظلمت الدنيا تماماً، آثرت المكوث مكاني، تحول أبو شامة إلى كتلة ظلامية تتمدد جواري، أسمع أنفاسه التي تعلو متحولة إلى شخير خفيف من حين إلى آخر، حتى البيت تحول إلى كتلة سوداء أيضاً. كان عندي شعور أن البيت الآن هو من يجلس في داخلي أو فوقي، ولست أنا من أجلس في داخله.

تحسست جيوبي لأبحث عن تليفوني لأستخدم كشاف النور، لكنني لم أجده، ولم أتذكر متى آخر مرة استخدمته فيها. كان علي انتظار عودة الكهرباء، أو انتظار عودة الآخرين. لم أكن خجلة من وجودهم بعد الذي حدث مع أبي شامة، لم يكن في داخلي أي شعور بالإثم أو الفضيحة، في الحقيقة لم أشعر بشيء محدد، لكنني شعرت بهذا اللا شيء أصيلاً، قد يكون هذا هو الإحساس بالحرية، هذا هو الـ"أن يكون الإنسان حراً"، وكل ما عرفته في حياتي سابقاً كان حفلاً كبيراً للتفاهة، كنت أتقشر بكل بساطة.

بعد وقت سمعت تكتكات المفاتيح من الخارج، كانت الفتاة السمراء، استطعت تميزها من صوتها، قالت: "إزيك؟"، "تمام".

خرجت كلمتي هواءً وتأتآت لا تكاد تصل إلى أذني، بالطبع ستخيل السمراء أني أتجاهلها، أو أنها لا تكترث لي أصلاً. أضاءت كشاف تليفونها، فاصطدم الضوء في عيني، ظل الضوء على عيني ثوانٍ، ففهمت أنها تتعمد مضايقتي، أزحت وجهي قليلاً فسقط الضوء على رقبتي، وهي حركت التليفون ببطء في عيني، ثم أسقطته على وجه أبي شامة النائم، كان الضوء يرتد بخفة على وجهها، فمكنني من رؤية ابتسامتها الواسعة. يدها تمتد بالتليفون، والضوء الباهر يمتد من التليفون إلى وجه النائم، ظلت هكذا أكثر من دقيقة، حتى فتح أبو شامة عينيه، حاول إبعاد وجهه إلى اليمين وإلى اليسار، لكنها كانت تلاحقه، حتى اعتدل وجلس سانداً ظهره إلى كتفي، فجلست السمراء أمامي، وصنعنا مثلثاً نحن أضلاعه مرة أخرى. وضعت السمراء التليفون على الأرض، فكان الضوء مسلطاً نحو السقف، وهابطاً بحميمية على أجسامنا، كنا نصنع ظلالاً طولية ومهولة على الحائط.

وضعت راحة يدي اليمنى على اليسرى، ومددتهما إلى الأمام، فصنعت الظلال شكلاً يشبه التمساح، منعكساً على السقف، بفم دون أسنان، أفتح يدي فيفتح التمساح فمه، أغلقهما، فيغلق التمساح فمه. تنبه أبو شامة للعبتي، فضم يده اليمنى باستثناء السبابة والوسطى، صنع ظل غزالة، يحرك يده كأن الغزالة تقفز وتجري، شجعني على مشاركته، أنا التمساح الذي سيجري خلف الغزالة، ويضعها بين فمه الذي بلا أسنان. زحفت بيدي خلف الغزالة، أفتح فم التمساح وأغلقه علامة على الجوع، تباطأ ظل الغزالة، إنها

منهكة، وكنت على وشك وضعها بين أسناني، لكن فجأة سمعت صوت "بوووم، بوووم"، ورأيت ظلالاً على شكل مسدس، كانت السمراء جوارنا تضم يدها وتصنع ظل مسدس، "بوووم، بوووم"، سقطت الغزالة أولاً، وكان على التمساح التراجع إلى مكانه، وكان لا بد أن نضحك، فضحكنا. قالت: "تعرفي تعملي كلب؟!"، أشرت إليها: "لا". تنبهت لعدم تكلمي، فسألت: "مالك؟"، ضحك أبو شامة، وقال لها: "صوتها ضاع". ضحك الاثنان، ونظرت إليّ السمراء وقالت: "أوبااااا، إحنا ممكن نقتلها هنا ومحدش هيسمع لها صوت". نظر إليّ أبو شامة بطرف عينه، وقال: "تصدقي، صحيح".

كانا ينظران ناحيتي ويضحكان، تراجعت بظهري إلى الخلف، أردت الوقوف، لكنني اصطدمت بأبي شامة يحتضنني بعنف من الخلف، وهي اقتربت واحتضنتني من الأمام، لوهلة استسلمت لأحضانهم، لأن جزءاً في داخلي كان يعرف أن ما يحدث مجرد هزل، لا أصدق أنهم سيقتلونني هكذا، بكل بساطة، لكن فجأة شعرت أن جسدي يختنق تحت ثقل أجسادهم، كانوا يخنقونني، شعرت بالألم الشديد في صدري ورقبتي، يد ما امتدت، والتفت حول رقبتي أيضاً، كنت أختنق بالفعل، حاولت الصراخ دون فائدة، مرة، ومرتين، وثلاث، وشعرت بحشرجات حنجرتي وبعروقي منتفخة، في هذه اللحظة استسلمت، فتركوني، وانهمكوا في ضحك هيستيري. قالت السمراء وهي تستمر بالضحك: "ده صوتها ضاع بجد". جررت نفسي واستندت إلى الحائط، فاقترب مني أبو شامة

وربت على كتفي: "متزعليش إحنا بنهزر". فلحقته السمراء: "يا حنين". جلست جواري، أعطتني سيجارة، ولكزت بكتفها كتفي: "خلاص بقة، ده هزار". فهززت رأسي، وأخذت منها السيجارة، نفثتُ نفساً سريعاً، وأعطيتها لأبو شامة.

بعد نحو ساعة، عاد مستر إكس والبيضاء وانضما إلينا، شغلا أنوار تليفوناتهما، وضعنا الأنوار في المنتصف، وصنعنا حلقة. فهمت منهم أن شركة الكهرباء قامت بالقطع بسبب عدم الدفع. كانوا يتكلمون دون يأس، يقطعون كلامهم من وقت إلى آخر ليضحكوا، يشيرون إلي وأشير إليهم. قال مستر إكس إنه يريد الخروج لشتري حشيشاً، لكن ليس معه نقود، قال أبو شامة أيضاً إنه أنهى كل ما معه، تبعته البيضاء والسمراء. الأخيرة أشارت إليّ وقالت: "معاها فلوس".

هززت رأسي، أي نعم نعم، وأخرجت الرزمة التي معي، وأشرت إليهم بيدي، ما معناه كم تريدون، لكن مستر إكس شد الرزمة كلها، وقال: "الخير والبركة"، وضحكوا جميعاً، فشاركتهم الضحك على مضض.

قال أبو شامة إنه سيأخذنا بالسيارة، سيتحرك من شارع القصر العيني، لكن مستر إكس قال له إن شارع القصر العيني مغلق، كانت جملته كفيلة باندلاع معركة مثل المعركة الصباحية مرة أخرى، تدخلت السمراء قائلة: "لسة مقفول، كسم الداخلية". قاطعها إكس بشخرة طويلة في وجهها: "كسم الثورة بتاعتكو يا قحبة". بسرعة اقترب منه أبو شامة، وأمسك قميصه قائلاً: "جرى إيه يا وسخ؟"،

لوهلة ظننت أن هناك مشاجرة كبيرة ستحدث، وفكرت في مصيري بينهم، لولا البيضاء التي صرخت في الجميع: "مش عاوزة أسمع صوت حد فيكو، يالا عشان نخرج".

وسحبت ذراع أبي شامة من قميص مستر إكس، وتأبطته، فلف مستر إكس – الذي ضحك ملء فمه – ذراعيه حول ظهري وحول ظهر السمراء. بدؤوا يضحكون معاً مرة أخرى، ويتشاورون بخصوص طريقهم الجديد، مع هذه النقطة، لم أعد أفهم ما الذي يحدث هنا، وما الذي يحكم جريان الأمور، وما هو شكل علاقاتهم بالضبط. كانوا مجموعة من المجانين المعاتيه، وقد يكون هذا هو الذي أردته.

عند الخروج من البيت المظلم، اصطدمت عيناي بنور الشوارع الكثيف. كانت القاهرة مختلفة عن ذي قبل، كأنها تبدلت، صارت حمراء أكثر من سابقتها، أشعر أن القاهرة هي المدينة الحمراء الوحيدة في العالم، قد يظن شخص ما أن كل المدن حمراء، لكن أحمر القاهرة حميمي، وفي الوقت نفسه يجرح، كالحب، love hurts، هههههه. قلت في بالي: "أهلاً يا قاهرة". أنا أراها بطريقة أخرى، هل يرونها مثلي، أم إنني أنا التي أصبحت أرى كما يرون، المهم أنني أشعر بالحب، أنظر إلى أبي شامة وأفكر، منذ وقت قليل كنا معاً متداخلين، لم يمثل هذا الفعل أي شيء، لم أشعر بالحب تجاهه، شعرت بالحب تجاههم جميعاً، أحببتهم كشخص واحد - جماعة – حباً عاطفياً، كانوا بالنسبة إلي كياناً وحيداً، يتمايلون فأتمايل، يرقصون فأرقص، يبكون فأبكي، نعم، هذا هو الحب، والحب يجرح، يقولها المغني

مرة أخرى داخل السيارة. أبو شامة يقود، البيضاء جواره، في الخلف أنا والسمراء، ومستر إكس في المنتصف. يغني هذا الشاب المسكين في كاسيت السيارة، ويغني الجميع معه، أنا أغني بقلبي بدل حنجرتي المجروحة، وأشعر بالهواء الشديد يطير شعري، يغطي شعري عيني، أرى الجميع منتشين، يقول المغني بصوت يشبه الزئير: "ومع ذلك عرفت شيئاً أو شيئين، تعلمت منكم، أووو هو هو هو"، يغني الشباب معه، يضمون شفاههم ويرددون كجوقة، تصبح الأغنية كالنشيد، تعبر السيارة الشارع، ثم تعبر آخر، تمر بالجدران الملطخة بالألوان، بالجرافيتي المقشر في مواضع والمنحوت في مواضع أخرى، ألمح عيوناً كثيرة مرسومة على الجدار، مكومة في سلة، ويسيل منها اللون الأحمر، دمٌ مجازي، يسيل منها ويسقط على الأرض، جوار قدم ضخمة ومبتورة.

-٩-

أظن أن لحظة السعادة الكبيرة أن يكون الإنسان في سيارة، معه جماعة من المجانين، ويغني.

كانت السيارة تتحرك في الشوارع كأنها تبحر في المياه، لا تسير على الأرض، وتغني معنا، تنتهي أغنية فتبدأ الأخرى، أغانٍ عن الغرام والهجر، يغني الشباب، يحتضنون بعضهم بعضاً، ويحتضنوني ونصرخ، كأن لحظة العراك السابقة لم تخلق، صخب الموسيقا يدخلنا عالماً آخر، أنسى معه موسيقاي القديمة، تشوشت في رأسي ألحان الأغنية المجهولة، هل كانت بطيئة حقاً؟ أم أن إيقاعها كان يوازي ما أسمعه هنا. تبدأ أغنية جديدة، هذه المرة باللغة الفرنسية، أغنية شهيرة، "نو مي كيتو با"، أعرف هذا المطلع، سمعته من قبل، لكن هذه النسخة في السيارة مختلفة، الموسيقا أسرع، يغنيها صوت أنثوي مبحوح، على أنغام درامز صاخب، تقول الأغنية: "لا تتركني، لا تغادرني"، يعلو صوت تصفيق، يصفق الشباب مع الأغنية، أصفق معهم، "لالالالاييلي، نو مو كيتو بااااا"، تقولها المغنية بقوة، "لا تتركني، لست من النوع الذي يبكي مع الفراق، لا تتركني، رغم

أنني لا أغني بلوعة، لا تتركني، لأنني أقول لك لا تتركني فحسب"، وتصفق، "نووو نو مو كيتو بااااا، لالاي لالاي لاااااا".

قلت لهم إنني أريد الذهاب إلى البيت، كأنهم سمعوني، أشرت إلى أبو شامة، خبطت على كتفه، "توقف، أريد أن أذهب إلى البيت"، فجأة توقفت السيارة، أشرت إليهم لينتظروني في المقهى الصغير، قلت سأبدل ملابسي وأعود بعد ساعة، معهم لم أكن بحاجة إلى المزيد من الكلام، إشارة واثنتان ويفهم الجميع.

فضلت السير قليلاً قبل الرجوع إلى البيت، كانت الفكرة كفيلة لجعلي متوترة زيادة، قلت لنفسي: "سأتمشى في مساري المعتاد، أسلك شارع شريف، ومنه أعرج إلى القصر العيني، معي وقت".

في الطريق، كانت الشوارع تتدرج من الأحمر إلى الأسود، كنت أقف مع كل ضوء شديد وألتقط صورة بكاميراتي الصغيرة، تختلط أذني بالموسيقا الجديدة: "نو مو كيتو با"، "الحب يجرح"، "هو هوو لالاي لي"، أدندن مع نفسي وأفكر في الجولة المنتظرة.

أخذتني رجلي إلى السوق، وجدت دكان الرجل نصف مفتوح، خبأت الكاميرا جيداً في بنطلوني، وسرت بسرعة لأتخطى الشارع، كانت عندي أمنية، أن أراه وألا أراه في الوقت نفسه، ظللت وقتاً بعدما تخطيته، أتخيل أنه سيقف خلفي ويناديني، أو إنني في أي لحظة سأسمع صوت جرار الباب وهو يفتح على آخره، من الجائز أنني كنت سأرمي له النقود لو كانت معي على عتبة بابه، كنت سأصالحه، وأغفر له فعلته بحقي، أظن أنه نائم، تاركاً سمكتي على المنضدة، منتظراً عودتي مرة أخرى لأشاركه الأكل، كان لا بد لي أن

أشاركه الأكل، وأقبله، انظر في عينيه وأبتسم، وأقبله ببساطة، لأمحو هذه القبلة الباردة عني. تململت في مشيتي وتباطأت، وجدت بائع البرتقال مكانه، فتوقفت لأشتري منه كيلو برتقال. اللمبة الصفراء مكانها على أول العربة الكارو، تدحرج ضوؤها على البرتقالات اللامعة، رفعت سبابتي وهززت رأسي، يعني: "زن لي كيلو"، ووقفت أعطي الدكان وجهي، على أمل أن يطل وجهه في أي لحظة، لكنه لم يخرج بالطبع. أعطاني البائع كيس البرتقال، ومد يده طالباً النقود، وضعت يدي في جيبي، فلم أجد شيئاً، لقد أخذوا كل النقود، نظرت إليه حيرى، فقال: "نعم"، أشرت إليه، وحاولت استخراج كلمة من جوفي: "نسيت الفلوس"، نجحت في قولها مبحوحة، وضعت يدي على حنجرتي أيضاً ليفهم أنني مريضة، الظاهر أنني أثرت شفقته، امرأة وحيدة وجائعة، صوتها ضائع، وليس معها نقود، تريد أن تأكل، فمد يده بالكيس قائلاً: "تعالي في أي وقت". ابتسمت له، وأخذت البرتقال، وانسحبت في طريقي إلى البيت.

كان البيت مظلماً، تخيلت أن شركة الكهرباء قطعت النور هنا أيضاً، لولا الأضواء المتسربة من أعقاب الأبواب في الطوابق السفلية. كنت أسمع مواء القطط مرة أخرى، لقد عادوا من مخبئهم السري، فهمت أن عودتهم تعني اختفاء الجارة الجديدة، لكن فور وصولي إلى طابقها وجدتها أمام الباب، بالطريقة نفسها التي كانت تقف بها عندما غادرت، يتسرب الضوء من داخل بيتها، فألمح قميصاً وردياً مهلهلاً معلقاً بمسمار في صالة البيت، يسقط النور على نصف وجهها، أستطيع تمييز كتلة جسدها السمينة والقصيرة

أوضح من قبل، أقول بصوتي غير المسموع: "مساء الخير". فتردّ: "مساء النور".

أتخطاها بسرعة إلى طابقي، أجد باب الشقة مفتوحاً، والإضاءة التي تخرج منه تنير أمامه جيداً، أنسحب بهدوء إلى الداخل، فيأتيني صوت المرأة من المطبخ، تهمهم ببعض الكلمات، ثم سمعت صوت رجل يرد عليها، بالتأكيد هو الرجل الذي كانت تنام معه، أهلاً أيها الـ"س". يجلسان في المطبخ، ما هذه الجلسة الرومانسية، ههه، يبدو أنهما منهمكان في الحديث لدرجة لم يلاحظا معها أن أحداً دخل البيت، وقفت أمام باب غرفتي لأسمع ما يقولان: "تشرب شاي؟"، "لا لا، شكراً".

هذا هو الحديث العاطفي الذي تستطيع أن تتفوه به هذه المرأة. دخلت غرفتي، ارتديت فستاناً أحمر، قطنياً وطويلاً، ووضعت عليه جاكيتاً أسود خفيفاً لأغطي أكمامه المكشوفة، كان الحديث متصلاً في الخارج، ويبدو أنه لا ينتهي.

تسللت بهدوء من غرفتي إلى غرفة المرأة، سرت في الظلام، واعتمدت على الضوء الخفيف الذي يأتي من الخارج، كان كل شيء تقريباً في مكانه، لم أجد آثاراً للروب الممزق. فتحت دولاب الملابس وسحبت قطعة من ملابسها لم أتبينها جيداً، وضعتها في الحقيبة وخرجت، عدت إلى غرفتي وأخذت خمسين جنيهاً، ووضعت الكاميرا مع ملابس المرأة والبرتقال في حقيبة، بحثت عن الهاتف فلم أجده في كل الغرفة، ثم تسللت لأخرج من البيت، لكنني تراجعت، ورجعت إلى مكاني منتظرة أن يخرج الرجل حتى

أستطيع رؤيته هذه المرة، وانتظرت أن تسحبه المرأة إلى غرفتها حتى يتضاجعا، كنت أسمع أصواتاً، يقول: "قوليلها ضروري ..."، وهي تهمهم من وقت إلى آخر: "طبعاً، طبعاً".

صوت الرجل غليظ، يدل على أن عمره في مرحلة الثلاثين، ربما مثل عمر المرأة، زميلها في العمل أو صديقها منذ الطفولة، هي تحب الوحدة، لذلك تعذبه بهذه العلاقة الغريبة.

ثم بدأ الصوت يعلو في الخارج، فانكمشت على سريري، خوفاً من دخولهما المفاجئ إلى غرفتي. سمعت صوت الرجل بوضوح وهو يقول للمرأة: "التليفون أهو، خليها تفوت عليّ".

للحظة شعرت أن مطرقة ما ضربت رأسي، إنه رجلي، رجل الدكان، بشحمه ولحمه، يأتي إلى هنا، ويجلس مع المرأة في مطبخها، بالطبع يعرف هذا المطبخ جيداً، اشترى السمكة ووضعها على المنضدة، قبّل خدها، وتركها هي لتعفن، قالت له هيا نلعب، تسلى بهذه الفتاة غريبة الأطوار، أنا أذلها، وأنت تضعها على كفوف الراحة، ثم نلقيها في الشارع، لكنه طمع، كان يحاول أن يتمادى في اللعبة، "سآخذها إلى بيتي، ثم سأشد على يدها، وأجعلها تتوهم أنني أرغبها، سأجعلها تطلب مني أن أقبلها، فأقبلها، وأجعلها تأتيني متى أشاء، وأتركها متى أشاء"، يقول لنفسه. وهذه الثعلبة كشفت مخططه اللئيم، فسحبته إليها، "لا تتمادى، افعل ما أقوله"، ثم تنتقم مني، تذلني، تمزق الروب أمام وجهي، "هاتي الكرسي، قفي هنا، صلحي الدرج"، وضحكة شريرة، ثم الآن أعطته الهاتف، "خذ هاتفها، احتفظ به، وسأجعلها تذهب إليك"، "إنها تتوهم نسيانه في

بيتك"، سيقول ذلك، يلعبان بي بقلب بارد.

لمحت عيني الرجل من عقب الباب، كانتا تتوجهان ناحية باب غرفتي، كأنه ينظر ناحيتي، ثم ينزلق بصره إلى رأس المرأة، قد ينزلق إلى صدرها أيضاً، أرى يده تسلم على يدها، يدها ترتاح في يده بنعومة، هو يشد أكثر بكفه الكبيرة، يجعل الكف اللينة تشعر بمدى قوته، يمر وقت أطول من اللازم، أطول من وقت السلام، يعرف هو جيداً كيف يجذب وكيف يشد.

صاحبت المرأة الرجل إلى السلم، وصلتني خطواته الثقيلة على السلم، من جديد عادت المرأة إلى البيت وأغلقت الباب خلفها، ظللت أراقبها من عقب الباب، تباطأت أمام بابي وتوقفت دقيقة، كانت تنظر ناحية الباب، وترفع حاجبيها كأنها تفهم أنني موجودة، أظنها تعرف أنني بالفعل موجودة، أظن أنني أخطأت وأغلقت باب غرفتي، وقد كان مفتوحاً.

ظلت جامدة تنظر ناحيتي، كأنها تفتح الباب بنظراتها، وتراني خلفه، كتلة جسدي ملتصقة بالباب، لو تحركت خطوة واحدة إلى الخلف، ستشعر بوجودي.

ثم تحركت جهة المطبخ، انتظرتُ أن تتحرك ناحية غرفتها، وتغلق الباب، لكن هذا لم يحدث، لم اسمع خطواتها، ولم أسمع صوت أي حركة، حتى إنني فكرت أنها قد تكون نامت على كرسيها أمام منضدتها الخشبية، يمر الوقت، ولم يكن معي وسيلة للتواصل مع الشباب، وخشيت أن يتركوني ويرحلوا.

كان عليّ الانتظار، فخلعت الجاكيت وتمددت على سريري،

وأخذت برتقالة وقشرتها، فصصتها، وقررت أن آكل فصاً كل عشر دقائق، نوع من اللعب مع النفس حتى يمر الوقت، أو تعود المرأة إلى مكانها، شيء ما قال لي أن أخرج وأتعامل ببساطة، لكن فكرة وجود الرجل هنا وتأكدي بأنه هو نفسه رجلها أشعرتني بالعجز، هل أخرج وأقول لها: "أهلاً أيتها الحقيرة، ما الذي تفعلينه مع رجلي، لا لا، ما الذي تفعلينه بي أنتِ ورجلك"، ثم ماذا سيحدث؟ أسمع صوتها وضحكاتها المؤذية مرة أخرى، قد لا أستطيع التمالك، فأتركها تمر في الطرقة، ليصبح ظهرها لي، ثم أضم قبضتي وأهوي بها على ظهرها بأقوى ما عندي، وماذا بعد ذلك؟ أذهب إلى الرجل، وأقول له: "عرفت ما الذي فعلته، لكنني أريدك أن تقبلني قبل أن أتركك، أو أنا موافقة على وجودك بهذه الطريقة حتى لو كنت صاحب المرأة، أنا أصلاً لا يهمني أنك صاحبها، أنا لا أؤمن بهذه الأشياء"، وهو سيسألني أي أشياء؟ فأقول له: "أشياءكم التي في دماغكم، أنا لا أعرف أصلاً هذه الأشياء، وليس لدي عقدة الذنب ناحية هذه المرأة، لا بد أن أنتقم منها أصلاً، والانتقام لا بد أن يكون أصيلاً وناضجاً، سأقوم بإغواء هذا الرجل، سأتمادى في لعبتهم، أنا لا أعرف شيئاً، انظر إليّ، إنني ساذجة ومحطمة، استغلني الجميع، لا أحد يفهمني، أنت الوحيد الذي يعرف كيف يراني ... إلخ"، وهكذا، حتى أشبع الإيجو خاصته، هو الرجل الجميل، المنقذ النبيل، سيفوز بي في النهاية.

كانت الفكرة كفيلة بفك الحصار الذي أفرضه عليّ، فخرجت من غرفتي، فتحت الباب وأغلقته بعنف حتى تسمع المرأة، وتعرف أنني موجودة، وتعمدت الدخول إلى المطبخ، قلت: "مساء الخير"،

فلم تسمعني بالطبع، كانت منهمكة في اللا شيء، تسند رأسها إلى الحائط، وتمد قدميها وترفعهما على رخامة المطبخ، وقفت أمامها وفتحت الثلاجة، التقطت زجاجة مياه وشربت منها وتركتها أمامها على المنضدة، لم تتحرك أيضاً، تبعت حركة الزجاجة من فمي إلى المنضدة بعينيها، ثم استكان بصرها على الحائط، فتركتها.

أخذت حقيبتي وقررت النزول مباشرة، هي خرجت من المطبخ، ومرت أمامي، ثم تخطتني وأصبح ظهرها لي، ضممت قبضتي ولوحتها بأقوى ما عندي، ووجّهت الضربة إلى ظهرها، وجّهتها لكنني لم أطلقها، وقفت أنظر إليها، عدّلَت وجهتها إلى الخلف، فأصبح وجهها مقابلاً لي، قالت بتلعثم: "فيه راجل...".

فضحكتُ باستخفاف، وددت لو قلت لها: "لا تكملي، كل شيء واضح، هناك رجل أعرفه وتعرفينه، لا داعي للاستطراد"، لكنها قالت: "راجل سأل عليكي".

اتسعت ضحكتي الصامتة، زمت شفتيها وعادت إلى المطبخ، فعدت خلفها، أشرت إليها بيدي، بما يعني ماذا هناك، فهزت رأسها باستغراب: "راجل سأل عليكي، وبيقول إنك تعرفيه".

ضحكت أكثر، والتقت عينانا، ولمحت في نظرتها شيئاً من الخوف، لوهلة توسعت عيناي، وبحلقت إليها، حتى رأيتها تتجمد مكانها، وتركتها وغادرت.

خرجت من البيت، وراقني أنها لم تقم بأي رد فعل، وشعرت أنني عدت مجدداً إلى البيت، وأعدت النظر في فكرة السكن مع الشباب، خاصة بعد الذي حدث مع أبو شامة، وقلت إنني سأكون معهم، لكن

لا بد أن يكون لي مكان خاص، وأنني سأوفر هذه الفكرة إذا يئست أو أصبحت معدمة تماماً.

كانت الجارة ما زالت مكانها على السلم، تقف وتنظر إلى أسفل، أظنها تراقب الهابطين والصاعدين، سمعت صوت انغلاق الباب في الأعلى، وخرجت لتعرف ما الذي يحدث، كانت هذه المرة تسد أمامي طريق النزول، واجهتني بعينين منكسرتين ووجه معتم، فأزحتها عن طريقي بحركة من يدي، فتحركت معي بسهولة، للحظة شعرت أنها مصنوعة من البلاستيك، رغم كتلتها السمينة والمترهلة أمامي. تخطيتها ونزلت، فنادت عليّ: "استني استنيا"، لكنني لم أنتظر، تركتها وجريت على السلم المعتم، حتى إنني دست على ذيل قطة في طريقي، فماءت المسكينة وفزعت، لم يكن عندي الوقت لأقف وأعتذر إليها.

أسرعت خطواتي على أمل أن يكون الرجل موجوداً في الجوار، جريت ناحية السوق، ووجدت الدكان مغلقاً، شعرت باليأس والخذلان، ثم قلت لنفسي الأفضل أنني لم أواجهه.

كان الدكان غارقاً في ظلام أزرق، اللمبة التي تواجهه تصنع ظلالاً باهتة لأعمدة الإنارة الأخرى، ظلال عريضة متوازية ومتداخلة على أرض الشارع، كأنها زهرة كبيرة، زهرة سوداء لها ضوء أزرق، خطوت ناحيتها وبدأت أقطع طريق الضوء إليها، فيسقط الضوء على وجهي، أتصور أن الضوء يختلط بسُمرتي فيصنع لوناً برتقالياً، أخرج من بقعة الضوء وأترك المجال للظلال لتعود إلى شكلها المزهر، أخرجت الكاميرا والتقطت صورة، كان الأمل ينتقل إلى مناطقه اللا

معقولة، أصور وعندي إيمان أن الكاميرا تلتقط صورة للرجل خلف الجدار، مبتسماً وناظراً تجاهي.

التفتُ إلى بائع البرتقال، والتقطت صورة للبرتقالات الملونة بضوء اللمبة الفلورست، كان البائع يتسم ظناً منه أن الصورة موجهة إليه، ابتسمت له ووجهت الكاميرا ناحيته، وأوهمته أنني أصوره، ثم رحلت.

ملت في طريقي حتى أصل إلى الشباب في المقهى، عبوري في الطريق نفسه أعاد إلي أغنية المرأة المجهولة وذكرى اليوم كله، قلت لنفسي إنه يوم غريب، كان إدراك الغرابة مفتاحاً لإعادة الايقاع الرتيب للحياة إلى أذني، شعرت به محبباً وأصيلاً، لحن الأغنية المجهولة يتردد في أذني، ويمحي الألحان الصاخبة التي كنت أدندن معها منذ ساعات، أو بالتحديد لم يمحها، إنما غطى عليها. أتذكر صوت المغنية، تعيد الذاكرة الصوت، وهذا شيء حدوثه نادر معي، أذكر النبرة الرسمية التي تغني بها، هناك حدة ناعمة، أحاول مرة أخرى رسم صورة للمغنية، أجعلها شقراء، لها قلب منكسر، وسطوة خارجية رغم الانكسار الذي يعطيها لمحة من الجمال والرقة، أجعلها طويلة ونحيفة، ولها شعر مموج، وفم واسع، وعينان خضراوان مسحوبتان، هذه الملامح تدل على جمال فاحش، لكنني لا أجعله هكذا، أغطي هذا الجمال بلمحة من البراءة والصرامة في آن واحد، أجعل المرأة تغني لي، وليس لمحبوب أو لكلب، ستغني لمشيتي التائهة في هذه الشوارع، لبحثي المستمر عن شيء لا أعرفه، ستقول لي أحبي نفسك، هذا هو الآموور "amour"، أنا أفهمك جيداً

أيتها المرأة، سأقول لها جملتي الشهيرة: "أنا صغيرة على كل ذلك"، فتقول لي: "المشكلة أنك لا تعرفين أنكِ كبيرة"، سأنفعل: "لا تطلقي أحكامك الغبية دون سابق معرفة، يؤلمني إسقاط الصور"، فتضحك، يعلو صوتها وتتسارع أنفاسها حتى تمنعني من المجادلة.

أجعلها تغني للرجل "أنت حبيبي"، سأصطاده بهذه الأغنية، وهي ستواطأ معي، ستهبني السر في صوتها حتى الوّعه هو وامرأته، ستفعل ذلك وتغمز لي بعينها، ثم سألتقط لها صورة بالكاميرا، سأجلس أنا وهي، والرجل في المنتصف، ويصبح لنا صورة مثل صورته مع عشيقته، ثم المرأة، ماذا سنفعل معها؟ سنذلها، نخرج لها لساننا، انقلب السحر على الساحر، لقد أخذت رجلك، هاهاها. صوتي ضائع أيتها المغنية، امنحيني صوتك، وزعيه على اثنين، أنا وأنتِ، وتأبطي ذراعي، دعيني ألمح النشوة في خضار عينيكِ الوهمي، لأضعها في صندوقي وأطلقها متى أشاء.

## -١٠-

أحب تأرجح الأشياء، اللعب بها. أخرجت كيس البرتقال من حقيبتي، وبدأت بهزه بين يدي، تصورت مظهري من بعيد، فستان أحمر منسدل، يغطيه جاكيت أسود قصير، على الكتف حقيبة بحزام طويل، وفي اليد كيس أزرق شفاف يعطي ضوءاً خفيفاً للثمرات البرتقالية، يهتز الكيس، يروح ويجيء، وأنا أتقدم، فأتحول إلى صورة ملونة ومتحركة.

أعرف أن كل ما حدث يبعث على الألم، كنت لا بد أن أصدق حدسي، لا تذهبي، الأفضل عدم الذهاب إلى أي مكان، أن أستمر في المشي إلى ما لا نهاية، هكذا يبدو الأمر حقيقياً أكثر، سيرة امرأة وحيدة تمشي، سأتوقف في اللحظة التي أقف فيها على حافة العالم، إذا كان هذا العالم له حافة، وأدلّي قدمي إلى الأسفل، قد أطير، مثل حلمي المتكرر عن الطيران، أعرف أن كل إنسان له حلم متكرر عن الطفو أو الطيران، لا أعرف من أين عرفت، لكن بالتأكيد طار أي إنسان في حلمه يوماً، أنا كنت أطفو بمقدار قليل عن الأرض، أجدف في الهواء، وأصبح أسرع من كل شيء، دائماً كنت أفر في الليل وسط

الأضواء اللامعة، وتكدس السيارات، بعدها أجد نفسي في متاهة، مربعات داخل مربعات داخل مربعات، أصنع متاهتي داخل عقلي، حتى يتعقد الأمر تماماً ويستمر إلى الأبد، حيث لا نهاية لشيء.

تدور السيارة، سيارة فضية كبيرة تشق الهواء، فتعيد أمامي حلم الطفولة، يدخل هذا الهواء من النوافذ بشكل دوامات صانعاً موسيقا رتيبة وهادئة، يمسك كل واحد منا برتقالته ويأكل، يمد أبو شامة فصاً ناحية فمي، فآكله بدلال، يفعل مستر إكس مثله مع السمراء، تسيل العصارة من فمها، فيقبلها قبلة طويلة، تصفر البيضاء، فيضحك أبو شامة، ثم يحرك السيارة، يقود بيد، ويده الأخرى تمتد ناحية فخذ البيضاء، أندهش للحظة من ترتيب العلاقات الذي بدأ يختل في هذه السيارة، تدهشني أكثر لا مبالاتي الداخلية، أقول لنفسي حفنة من المجانين، ثم أنجرف معهم في الضحك.

يعجبني الصفير الذي أطلقته البيضاء، ممطوط وعالٍ، يمتزج بدوران الهواء في أذني، أحاول تقليدها، تنجح شفتاي، وتخفق حنجرتي في إنتاج الصوت، أخرجه صفيراً ممطوطاً، ثم ألحنه، أصنع لحناً يشبه لحن أغنيتي المجهولة، تندمج معي السمراء، تلتقط الايقاع، وتشترك في اللحن، تنضم إلينا البيضاء، فنكوّن صفيراً أنثوياً مبهجاً في السيارة. ثم تغادر السيارة شوارع وسط البلد المنيرة، وتبدأ بالعروج إلى كوبري لا أعرف اسمه، تخف الأضواء، وتأتينا أنوار البيوت المستيقظة على جانبي الكوبري، يمتد صفيرنا، ويأخذنا إلى لحنٍ آخر مجهول، تبدؤه السمراء، فنلتقطه منها، ونشترك معها، يعرج اللحن إلى لحنٍ آخر، ولحن آخر، وهكذا.

بدت الرحلة طويلة ومملة، خاصة مع الصمت الثقيل السارح بيننا، تتحرك السيارة الكبيرة من الشوارع الواسعة إلى شوارع أقل اتساعاً، أضع رأسي على النافذة، وأتفرج على البيوت المترامية من وقت إلى آخر، تهاجر السيارة القاهرة وتبدأ في التعرج إلى منطقة جبلية، لم أذهب إليها من قبل، المقطم، ترتفع السيارة فأشعر أنني انتقلت إلى بلد آخر، يبدو الجبل في الليل مثل وحش رابض يحرس المكان، أشعر أننا ننتقل من مكان إلى مكان إلى مكان، طبقات فوق طبقات، أتمسك بالكرسي جيداً، أتشبث به، أتخيل سكان الجبل داخل الكهوف، هل يتعايشون على دم غرباء أمثالنا؟! يقفزون فجأة على سيارة فارهة تسير في سواد الليل، يختار كل شبح فريسته، يقتات عليها حتى تموت أو تتحول إلى مصاص دماء جديد، هكذا يجدد الجبل حياته بهذه الدماء الطازجة والوجوه الجديدة. أشعر بالسيارة تقفز بعنف وتطير، ثم تسقط على الأسفلت وتكمل طريقها، أتشبث بمكاني أكثر، وأشعر بيدٍ تحيط رقبتي وتنزل ببطء على ظهري، اليد تكمل مسيرها حتى تقبض على خصري، تعصر اليد بعنف، أواجه رأس مستر إكس المتوجه ناحية السمراء، التي تغمض عينيها وتبتسم، ويده تتحرك على جسمي، كأنها تفعل ذلك وحدها، غير منتمية إليه، قلبي يدق بقوة، وأشعر أنه في أي لحظة سيلتفت ناحيتي، ويتمم، فتظهر أنيابه المسنونة، فيغرسها في رقبتي، حتى أرى خيط الدم نافراً من عروقي أمامي، وكلهم سيمدون أياديهم ويشربون، كلهم، أبو شامة، والبيضاء، والسمراء، كلهم سيشاركونه. وضعت يدي على يده، قستُ حجم يدي بحجم يده، لاحظت أن أصابعي طويلة،

وأصابعه عريضة، استطعت أن أرى ابتسامته وعينه وهي تنظر إليّ بطرفها، قبضت على اليد الكبيرة جيداً، فتراخت في يدي، ثم ألقيتها بعنف إليه.

أعرف جيداً شكل نظرة الحقد الدفين التي رأيتها في عينيه في هذه اللحظة، نظرة الحقد التي سرعان ما تحولت إلى قهقهة مكتومة، هزت جسده ولم يلمحها سواي.

تكوم جسده على جسد السمراء، كان يفرك نفسه فيها، وهي تتفاعل معه، ظللت مذهولة للحظة حتى وجدته سينام معها هنا، في السيارة وأمامنا، فوجهت رأسي ناحية النافذة، وبدأت أسمع أصواتهما تعلو، أصوات الرغبة لا تختفي، تعلو وتعلو معها السيارة بسرعتها الكبيرة، ألصقت وجهي بالزجاج، وشعرت بأجسامهما تمدد محاولة إزاحتي عن الكرسي إلى الشارع، أشعر بقدم الفتاة جانبي، يعلو الصوت حتى يفور، فيخبو فجأة.

بعدما انتهي كل شيء، أبقيت نفسي ملتصقة بالزجاج، سمعت همهمات كلامهم جميعاً، فلم أتبين بالضبط ما يقولون، وانتابني دوار، كانت لدي رغبة قوية في الرحيل، لكنني لم أفعل.

لم أتفكك من اللحظة إلا عندما رأيت السيارة تدخل المقابر، تتحرك على مهل في الظلام، خاصة بعدما أطفأ أبو شامة فوانيس الإضاءة الأمامية، ثم توقف عند إحدى المقابر، ضرب كلاكس مرتين، وانتظر.

ظللنا في أماكننا أكثر من نصف ساعة، كل ١٠ دقائق يضرب أبو شامة الكلاكس، كان الكل صامتاً ومنكفئاً على ذاته، وضعت

وجهي على الزجاج مرة أخرى، في محاولة لتبين الكلام المنقوش على المقبرة التي أمامي، لم يساعدني الظلام، لكنني استطعت تبين جسد يرفع غطاء القبر، شُفت رأساً مدوراً وعينين براقتين، ثم الجسد الطويل بشكل لا معقول، مشى الجسد ناحيتي، مشى حتى أصبح وجهه ملتصقاً بوجهي ويفصل بيننا الزجاج. قال: "السلام" بصوتٍ غليظ، لم أستطع إبعاد عيني عن وجهه، كنت أود أن أرد: "لولا سلامك سبق كلامك، لأكلت لحمك قبل عظامك"، لنتحول هو وأنا إلى حكاية أسطورية، ونتقايض، أنا أعطيه تفاحاتي لينجب البنين والبنات، الحلوين والحلوات، وهو يعطيني ابناً من أبنائه حتى أطبخه يوم العيد، "سلاااام"، يرددها مرة أخرى بصوت أعلى، فيضيء أبو شامة الفانوس، "سلام"، يرد عليه، ويفتح زجاج السيارة الأمامي ماداً يده بنقودي، يتحرك الرجل ببطء، يتركني، ويذهب إلى الأمام، يأخذ المال، ويلقي شيئاً في حجر أبي شامة، وتنطلق السيارة بسرعة جنونية، تاركة عيني الرجل متعلقتين بعيني، هم يضحكون، فتبدأ السيارة عودتها مرة أخرى ناحية المدينة الحمراء.

يقول مستر إكس إننا سنذهب إلى أحد أصدقائهم، يطلب من أبو شامة أن يقود السيارة، فينتقل إلى الأمام هو وفتاته، وتنتقل البيضاء إلى جواري، وأبو شامة إلى جوارها، يأخذنا مستر إكس بالسيارة حتى نصل إلى بيت يقع في أطراف القاهرة، في حلوان.

عندما وصلنا إلى البيت الجديد، عرفت أن صديقهم هذا يعيش في عزلة هنا منذ سنوات، يذهبون إليه من وقت إلى آخر، ويزودونه بالأكل والمال، بيت كبير ومساحته واسعة جداً، لكنه يغلق كل

الغرف، إلا غرفة واحدة استقبلنا فيها، ما تبقى من البيت مظلم والشبابيك مغلقة، شممت رائحة عفونة أول خطوة لي في المكان. يشغل الرجل التليفزيون وسط فوضى لا معقولة، وزجاجات كثيرة وفارغة على الأرض.

يرحب بنا الرجل الغريب بلا كلمات، لا يسلم على أحد باليد، ويقدم لنا الشاي بأكواب كبيرة، ومحلى بسكر زائد، يجلس أمامنا مطأطئ الرأس. جلسنا أمامه على كنبة مسودة من الاتساخ، كان يرفع عينيه وينظر ناحيتي، شعرت بلؤم في نظراته، بعدها شعرت برغبة قوية في البكاء بلا سبب، وبكيت بالفعل، فخرج الرجل مسرعاً من الغرفة عندما رأى دموعي، همست السمراء في أذني:

– خلي بالك الراجل ده بيعمل سحر.

فضحكت، لكنها قاطعتني:

– أنا مش بهزر، إنتي عارفة الكنبة دي، ساكنة فيها روح مراته.

لم أكن أعرف هل كان كلامها جدياً أم هزلياً، لكنني شعرت بالخوف وبألم في روحي، حثني على البكاء أكثر، فاستأذنته في الدخول إلى الحمام.

تذكرت نصيحة قديمة من امرأة عن موضوع السحر هذا، لبطلانه لا بد من الاستحمام بالماء والملح، وتغيير الملابس، أخرجت ملابس المرأة من حقيبتي، كان فستاناً أسود وطويلاً، مفتوحاً عند الساقين، وعليه زهرة رمادية على موضع البطن، غسلت جسمي بالماء، وبدلت بملابسي فستان المرأة الذي كان ضيقاً، لكن شكله جذاب، عرفت ذلك من نظراتهم في الخارج.

خرجت وقلت لهم إنني أريد الذهاب من هنا، كانوا يضحكون، ومستر إكس وأبو شامة نظرا ناحيتي وصفّرا، وقفت على عتبة الباب وأصررت: "أريد أن أذهب"، فطاوعوني، بعد نزولنا التفتوا مستفهمين، جاهدت لأخرج كلمات واضحة، قلت: "طاقة المكان مؤلمة". فردوا جميعاً: "طبعاً".

## -١١-

الثانية ليلاً، مرت العربة من هنا قبل قليل، أظنها مرت سنوات، يمتد الزمن ولا يتوقف، يرجع إلى الخلف وإلى الأمام، أرى نفسي شخصاً آخر بعيداً عن هذه النقطة، خلفي الماضي وامرأة ساذجة، وأمامي المستقبل وامرأة لا أعرفها، يجلسون في أماكنهم، يعمل الحشيش فعلته، فأشعر بهم منتشين، محلقين في فضاءٍ آخر، طائرين كما في الأحلام، أنا كنت طائرة معهم بالعدوى.

السيارة تخترق الشوارع الخاوية، كنت أسمع كل شيء، سماع نقنقة ضفادع المصارف، ممتزجة بهدير الموتور الذي يئّن من حرارة الحديد، والصُحبة التي فضلت قضاء الليلة في التسكع واللّف في شوارع القاهرة كلها، بداية من حلوان وانتهاء بصحراء أكتوبر، وخلالها بالطبع كان لا بد من المرور على "الدّيلر" للحصول على زاد الرحلة.

طارت السيارة من ميدان التحرير في بداية رحلتنا، وها نحن نلف في أماكن لا أعرف أنها موجودة أساساً. يقرر أبو شامة كسر الصمت ويشغل الكاسيت، ينبعث صوت أم كلثوم مع أنغام صاخبة،

تشبه أنغام الأغاني الأجنبية، هذه هي أم كلثوم العصرية، تقول: "هذه ليلتي"، ويصاحبها صوت الدرامز الصاخب، يتكرر صوتها عشرات المرات، ينقطع ويمتط ويتكرر مرة أخرى، "وديار كانت قديماً، وديار، وديار، ودياااار، وديار"، تحولت أم كلثوم إلى مغنية مهرجانات، يهدأ صوتها من حين إلى آخر، ويكتسب بحّة معدنية، يتراقص الشباب، ويتبادلون سيجارة الحشيش، أنا وحدي أتكوم في ركن السيارة، أشاهدهم، وأستمع إلى الأغنية بحرص، تعود أم كلثوم إلى أصالتها، وتدندن جملتها الآسرة: "سوف تلهو بنا الحياة وتسخر"، ينفث مستر إكس الدخان، ويصدر شخرة ممطوطة، ويغني بأسى مع أم كلثوم: "سوف تلهو بنا الحياة وتشخر، وتشخر يا سِّت". تهتز السيارة من الضحك، تهتز وتفرقع أيضاً، ثم تتوقف مطلقة صريراً حاداً، نجد أنفسنا وسط الطريق الدائري، توقفت السيارة بسبب فرقعة الكاوتش، يوقف مستر إكس الأغنية، نخرج جميعاً ونحاول تحريك السيارة جانب الطريق، تدفع النساء من الخلف، ويحرك مستر إكس وأبو شامة من الأمام، ننجح في الوصول، ويعمل أبو شامة على إصلاح الإطار، مستر إكس يجلس جانب الكوبري، أراه يخرج شيئاً من جوربه ويضعه في فمه، تسأله البيضاء عما حدث، أقترب أنا والسمراء لنشترك في الحديث، يقول إن السيارة انفلتت منه فجأة، لأول مرة أراه متلعثماً ومرتبكاً، كان يحكي عن وجه رجل رآه في المرآة، رأس رجل مذبوح والدم نافر من عروق رقبته، يقسم أنه رأى طرطشة الدم على زجاج السيارة، ربتت البيضاء على كفه، وانفعلت السمراء وصرخت في وجهه:

"هي ليلة سودا من الصبح"، فتحتضنه البيضاء، تحتضنه، ولا أصدق أنه يبكي.

ألتفت لأرى الدم على السيارة، فأراها نظيفة كما هي، أبو شامة يفك الإطار ويضع واحداً جديداً، بعدما ينجح في إصلاحها، تتبدل الأماكن، يقود هو السيارة، وتجلس السمراء جواره، يجلس مستر إكس والبيضاء جواري، يغفو على كتفها، ويحل الصمت مصاحباً له الإحباط هذه المرة.

تسير السيارة بكآبة، تلف السمراء ببرود سيجارة حشيش أخرى، وتناول الجميع السيجارة بالتناوب، يلتقط مستر إكس السيجارة وهو نائم، يفتح عينيه وينفث الدخان، يبدأ الدندنة من جديد، يعطيني السيجارة، فأمررها دون أن أشرب منها إلى أبو شامة، لا أتبين ما يقوله مستر إكس، يتكلم بصوت واهن، لكن ينضم إليه الجميع، يرددون نشيدهم. الحياة ليست كما تبدو، الفوضى تشبه النظام بالضبط، ذاتي في المواجهة، والسُلطة بنت وسخة طوال الوقت، أنا حالم أيها العالم، ولكنني لستُ بمفردي، معي كل الأشباح والملعونين طوال التاريخ.

يشكلون كورالاً صاخباً في الطريق الفارغ تقريباً، الدندنة تتحول إلى غناء، والغناء يتحول إلى صخب يهز العربة، ثم صراخ يجرف مشاعرهم إلى الحافة، وسط قهقهات لا تتوقف. تسرع السيارة مرة أخرى، تعود إلى حالتها الأولى المكررة، حالتها المجنونة، ينتهي الطريق ليبدأ آخر، دندنتهم لا تتوقف، أحاول الغناء معهم، تنجح حنجرتي في إفلات بعض الأصوات، الفوضى تشبه النظام بالضبط،

أنا حالم، لكنني لست بمفردي. يبدأ الطريق بالاتساع بشكل هائل، تنجرف السيارة إلى الصحراء، تنجرف بحدة، وتتوقف في مكانٍ مهجور، ويعلن أبو شامة أننا وصلنا.

نخرج جميعاً، ويعطينا أبو شامة غطاء السيارة لنفترشه على الأرض الرملية، يتركون لي هذه المهمة، أنتقي مكاناً وأنظفه من الصخور الصغيرة، وأفترش الغطاء القماشي، ونجلس في دائرة. يضعون هواتفهم في المنتصف مشغلين أنوارها، يتجه رأس مستر إكس إلى السماء، أنظر معه في الفضاء، أرى نجوماً لا حصر لها، سماء سوداء مرصعة، أستطيع أن أضع نفسي مع النجوم لأطل على الصحبة الجالسة، فأرى دائرة داخل دائرة، وكهرباء تشع من الأجسام المعتمة.

يخرج أبو شامة حبوباً ملفوفة في منديل من جيبه، يناول كلاً منا حبة، يحثني على التجربة، ويطمئنني بأن هذا النوع فاخر ومختلف عن الحشيش الذي ضيع صوتي، أبلع المخدر كما يفعلون، بعد ثوانٍ أشعر بارتعاش في أطرافي، أشعر بالنمل يسري في أعصابي، يتحول النمل إلى كهرباء تتصاعد من نهايات الأعصاب، "لالالالالا"، هناك صوت عويل ناعم يتقدم في أذني، طنين خفيف، يتحول الطنين إلى ريشة تلاعب عيني، ريشة بيضاء تتحول إلى أشباح رمادية تتراقص بحرية إلى جانبي دماغي، أشباح يحتضن بعضها بعضاً عند طرفي عيني، فتلد الآلاف منها، تتكاثر وتخرج من الضباب، ثم تتوقف الأشباح، تتراجع إلى مكانها، أشعر بالهدهدة التي تسبق السكينة بعد وصول المخدر إلى المخ، ثم فجأة، أسمع صرخة مدوية تغرز

الأشواك والإبر في مقدمة الرأس تماماً.

بعدها سكن كل شيء، توقف وتجمد في مكانه، كنت أراهم كائنات هلامية، تنزاح أرواحهم، تخرج وتعود إلى أجسادهم مرة أخرى. بعد هذا الشعور الفريد ابتهجت وشعرت بالانبساط، فأخرجت الكاميرا لألتقط لهم صوراً بأشكالهم الخفيفة الجديدة، يطلبون التقاط صورة جماعية، فأنضم إليهم، يضع مستر إكس يده على ظهري، لكنني أزيحها برفق، أبتسم ونلتقط الصورة. أشعر ببرودة رطبة، خاصة مع فستان المرأة المفتوح الذي أرتديه، أحاول تغطية رجلي بيدي لكن لا فائدة، ألاحظ أن عيني مستر إكس تلازمان رجلي، أفهم ما يريده، لكنني لا أستطيع التفاعل معه، يحركني ناحيته شعور بالنفور لا أفهم خلفيته، يزيد إصراره على االاقتراب مني، لكن السمراء تدلل عليه، فيجاريها. أعرف أنها تلاحظ ما يفعله، فتوجه ناحيتي نظرات الكراهية.

أرى أبو شامة في مواجهتي، أندهش من هذه المسافة التي بيننا، أتحاشى وجودي بالقرب منه، وهو أيضاً، تبقى البيضاء وحدها محايدة بالتعامل معي. يضيقون الدائرة فيصبحون قريبين مني، يدخنون السجائر، فيضيع الدخان في الصحراء. يحكي أبو شامة عن رحلة قديمة له في صحراء المغرب، يقول إنه كان طفلاً صغيراً، خرج في رحلة مع أبيه، ومجموعة من الخدم، بينهم امرأة، وأنهم تفرقوا، لكنه ظل مع أبيه الذي افترش الأرض ونام، وهو ذهب ليبحث عن الخادمة، فوجدها مع أحد الرجال وراء صخرة كبيرة، كانا عاريين من الأسفل فقط، والرجل يضاجع المرأة وهما واقفان، وكيف أن الرجل

كان يتحرك بسرعة مثل الديك، وكيف أزاح المرأة بعنف عندما رأى الطفل الصغير أمامه. يسرد أبو شامة وقائع فضيحة الرجل والمرأة بسببه، ويضحك، ويضحكنا معه.

"وإنتي؟"، أبو شامة قطع حديثه وسألني، افهم أن السؤال عن حياتي كلها، وليست رحلتي إلى المغرب، لأنه ليس لي رحلة إلى أي بلد، حاولت التملص، وضعت يدي على حنجرتي، لكنه أصرّ. تكلمت بصوت يشبه الفحيح، أقول لهم إنني أعيش الآن مع امرأة غريبة، وإنني أبحث عن عمل. تقاطعني السمراء: "وقبل كدة؟".

لم أفهم أبداً الأسئلة التي تدور حول الماضي، أنا أصلاً أنساه بشكل مريع، أردت أن أعيش وحدي، فتركت كل شيء وعشت وحدي، أجبتها: "عادي، معرفش". تقول البيضاء: "يعني إيه؟".

فأتجاهلها، أدير وجهي ناحية السمراء، فتمد البيضاء يدها وتمسك وجهي، وتحركه ناحيتها وتسألني:

– وإنتي بقة يا بطة، نمت مع الحلو ده وإحنا مش موجودين؟

وتشير بعينها ناحية أبو شامة. أفهم أنه قال لهم ما حدث بيننا، هو عدّل وجهه ناحية مستر إكس، كأنه لا يسمع، فنظرت إليها بتحدٍ ولم أنطق. ضحك مستر إكس وقال: "مش مهم، مش مهما".

ثم لف يده على ظهري، سحبت يده وألقيتها عليه بعنف، فخبطت يده أنفه، هذه المرة كانت مواجهتي معه أمامهم جميعاً.

لم أكن أتوقع رد الفعل الذي حدث، وجدت نفسي مكومة تحت رجليه وهو يلطمني، يصرخ ويقول: "هموتها"، أشعر بالكفوف تهبط

على وجهي ورقبتي، انضمت إليه الفتاتان، يضرب بعنف وتضربان معه، يلكز برجله وبيده، شعري يُشد بعنف إلى الخلف، أشعر أنني على حافة الموت بالفعل، "هموتها"، فتهبط قبضات مضمومة متالية على رأسي، شعرت أن رأسي ينشق نصفين، وغامت الرؤية.

انغرس شيء في عيني قبل أن أغيب تماماً، استطعت أن أتبين وجه أبو شامة يتمتم، ويمسك سكيناً، ويقربه من عيني، ثم رأيت ملاكاً أبيض، ذا عينين غائرتين، وفي فمه وردة.

# الفصل الثالث

## - ١ -

جسدٌ نائم ممدد على الرمال، جسد يرتدي السواد وسط رمال صفراء، يكسر لونه المساحة الشاسعة للون الغبار الموحد. يرفرف كائن أسود آخر فوق وجه النائمة، يحط على قدمها، ثم يطير مبتعداً عندما تتحرك الرِجل، يستقر الغراب الأسود على بعد ثلاثة أمتار من الجثة القريبة، أحرك قدمي فلا تكون هناك جثة.

ارى أمامي اللون الأصفر ممتداً، اعرف أن الأصفر هو درجة من درجات الأسود، وهذا هو العَمى، جسمي ممدد على فراش السيارة، ووجهي على الرمال، والشمس قريبة وملتهبة مثل الفرن، حاولت فتح عينيّ، فامتلأت رموشي بحبيبات التراب. على امتداد البصر كان الفراغ الأصفر هائلاً، أفقت ببطء، ورأيت غراباً أسود يقف وسط الصحراء المترامية، نعق مرتين، وهو ينظر إلي باستغراب، اظن أنه كان يحسبني جثة، وأنني هنا ليأكلني.

قلت له: "قاااق"، فخرج صوتي أوضح من الليلة السابقة، فكررتها: "قاااق، قاااق"، فطار وتركني، أدرت وجهي إلى الناحية الأخرى لأرى من معي من الرفقة، فلم أجد أحداً، تحسست عينيّ

فوجدتهما مكانهما، فقمت ونفضت التراب عن فستاني، ووجدت حقيبتي والكاميرا جواري على المفرش، فأخذتهما وتمشيت.

تبعت خط سير آثار إطارات السيارات، كانت الآثار تدل على انحدارها من الأعلى. ظللت أتمشى تحت الشمس الساخنة، أسمع أصوات الغربان محلقة فوقي، ذكرني ما يحدث بحلم راسخ من أيام طفولتي عن وجودي في صحراء كبيرة، أذهب إليها بعد سقوطي من تل أخضر مرتفع، فأجد خيمات ممتلئة بالرجال، كل من فيها رجال، يأخذونني معهم كأنني شخص مقدس، يعطونني كتاباً يخرج منه نور، ويقولون افتحيه لأنكِ الوحيدة القادرة على فتحه، ظل هذا الحلم معي، كلما كبرت في الحقيقة، كبرت في الحلم، كنت أعدل تفاصيله من وقت إلى آخر، أغير شكلي، الملابس التي أرتديها، شكل الرجال المموه، أطوالهم، الخيمات والتل الأخضر، حتى توصلت إلى هذه الصيغة الحالية، التي لا أعرف إن كانت هي ما شاهدته، أم إنها نسخة معدلة عدة مرات، المهم أنني كنت أستعير هذه القداسة لمواجهة لحظات هشاشتي الكبيرة.

بدأت أسمع نباح كلاب يأتي من بعيد، فشعرت بالذعر وجريت، كانت قدماي تغوصان في الرمال الملتهبة، أشعر بحرارتها تحت جلد الحذاء، سمعت أصوات سيارات قريبة، ونجحت أخيراً في الخروج إلى شارع عام، استوقفت تاكسي، وطلبت منه أن يوصلني إلى أقرب محطة مترو، حتى أستطيع الوصول إلى البيت. لكن المسافة كانت طويلة، وعداد التاكسي تخطى خمسين جنيهاً قبل أن نصل إلى أي مترو، فعدلت وجهتي وقلت للسائق أن يذهب إلى مكان بيتي. كان

الجو خانقاً، والشوارع مكتظة، وضعت راسي على زجاج النافذة، لسعتني حرارة الشمس، والرطوبة كادت تخنقني، شعرت بضيق في التنفس، وبانقباض في قلبي، ورأسي كان يؤلمني من الخبطات والضرب، لا أصدق أن عينيّ ما زالتا مكانهما، لقد شعرت بشيء ينغرس فيهما، ورأيت السكين في يد الكلب أبو شامة، كأنه أفرغ عينيّ ووضع لي اثنتين مكانهما، هاتان ليستا عيني، عيناي معهم الآن، يضعونهما في كيس بلاستيكي، ويعلقونهما على الباب، أخذوهما كتذكار، تركوا لي عينين ليستا لي.

أغمض جفوني لأسبح في الظلام، وأفتحهما فجأة، فأرى السيارات المتلاحمة مخنوقة وغارقة، كنت أتمنى رؤية سيارتهم تمر جوار التاكسي، رؤيتهم، لكنني لن أستطيع قتلهم، لا أريد قتلهم، وددت الفهم، لماذا حدث كل شيء من البداية؟ لماذا عرفتهم ووصلت إلى هذه النقطة؟ أردت أن أعرف، أن أعطيهم عيناهم وآخذ عينيّ المستعملتين، لقد شهدتا معي كل الزمن الفائت. من سيشهد معي على الأحداث الماضية عندما أريد استرجاعها من الذاكرة؟ من سيهبني الايمان؟ أنني كنت موجودة هناك؟ وأن كل ما حدث حدث؟ سأقول لهم لن أقتلكم، أريد عينيّ فقط.

يمر أمامي ما حدث، أراني مكومة على الأرض، وأجسامهم مموهة، تتحرك كأطياف طولية وملونة حولي، مذعورة وخائفة من الجثة التي سال دمها، يجرون إلى سيارتهم، فتسيل أرواحهم بألوانها المتعددة خلفهم، يتركونني أواجه مصيري وحدي، تشق السيارة طريقها، تخمد أرواحهم ثم يضحكون.

يمر التاكسي في شوارعه المزدحمة، السائق قديم وكلاسيكي، يشغل الراديو، والراديو يغني للغزلان، لست غزالة، لست شيئاً يؤكل بسهولة، سآكلكم جميعاً، سأبدل بجلدي جلودكم وأحيا.

يتأني التاكسي في سيره عند دخوله إلى المكان، عندما قاربنا على الوصول، أمرته أن يدخل إلى السوق، وتوقفنا أمام الدكان، فدخلت دكان الرجل، وطلبت منه أن يعيرني خمسين جنيهاً، ففعل دون تردد، أعطيت السائق النقود، ورجعت إلى الدكان. كانت ملامح الرجل في هذا اليوم متهدلة، وتدل على عمر كبير عن سابقه، عيناي الجديدتان تريانه كذلك، كنت أشعر بنفور منه، خاصة عندما اقترب مني ووضع يده على خدي، فشعرت بالاشمئزاز، سألني: "مالك؟" فلم أرد، أخرجت الكاميرا من الحقيبة وأعطيته إياها، أخذها دون كلمة واحدة، أو نظرة استغراب أو عتاب، تشجعت وطلبت منه التليفون، فدخل غرفته وعاد بالتليفون الذي كان مغلقاً، فوضعته في الحقيبة، استأذنته في استعمال الحمام، فلم يمانع، دخلت وغسلت وجهي ويدي، ثم خلعت فستان المرأة، ووضعته في الحقيبة، وارتديت ملابسي مرة أخرى، وخرجت لأرحل، أمسك يدي وحاول شدي لأجلس معه، لكنني رفضت، وتركته ورحلت.

وأنا أتمشى من السوق إلى البيت رأيت صبي الأسماك، يفترش جوالاً أخضر، وأمامه سمكتان من النوع والحجم نفسه، يلف حولهما الذباب، وهو يهش بيده، وعيناه تزوغان على الرائح والآتي، يريد اصطياد الزبون، عيناه تتعلقان بي، أشجعه بنظرة تقع على حافة

الابتسام، يكاد أن يتكلم معي، فأجحظ له عيني، يرفع الصبي حاجبيه، فأشير إليه بإصبعي، "أدرِ وجهك إلى الناحية الأخرى"، فهم إشارتي، فأدار وجهه مرتبكاً.

يعود السوق كما هو غريباً بالنسبة إلي، يتسع ليبتلع الدكان في داخله، أراه صغيراً كما هي حقيقته، مدفوساً وسط النتانة. الباعة يرتدون ملابس زفرة، يصبحون أسماكاً كبيرة، لهم حراشف وزعانف وخياشيم، يسبحون في أماكنهم، يهزون أذرعهم لإحاطة البضاعة، ينادون بها. لا بد أن رجل الدكان يعمل في السحر، مثل الرجل غريب الأطوار، صديق شلة الأنس، هو يتغذى على طاقتي ووجودي، إنه بائع أسماك من نوع خاص ونتن، مثلهم جميعاً.

يتسع السوق أكثر، وتتداخل الأصوات في أذني، يصبح الصخب حقيقياً، كيف لم أسمع كل هذه الأصوات من قبل؟ كيف استطعت فصلها وعزلها عن صوت أغنيات الرجل؟ كيف تركت الصخب وحيداً ودخلت إلى عُزلتي؟ هذا سؤال هزلي ومضحك، لكنه يبعث الألم.

لاحظت أن باب البيت واطئ أيضاً، وأن البيت نفسه عالٍ ومتهالك، وأنني أسكن آخره، في أعلى نقطة، ستقع إذا سقط البيت، ستُشرخ الحيطان والأسقف وتبتلعنا. بدت لي الطوابق الست من الأسفل كمتاهة كبيرة لن تنتهي، صعدت بصعوبة، استندت إلى حافة السلم، أحني ظهري إلى الأمام وأحاول ألا أسقط، أتوقف في كل طابق لأستريح حتى أستطيع المواصلة، ترقبت وصولي إلى طابق الجارة الغريبة، نظرت من أسفل فلم أجدها على السلم. كان المنظر

العام دوائر داخل دوائر، تقترب مني الطوابق، تتسع دوائرها وتبتعد، ثم تضيق وتطبق عليّ، ثم مرة أخرى تعود إلى أماكنها.

عندما وصلت إلى طابق الجارة وجدتها أمام الباب، هذه المرة استطعت رؤيتها كاملة، كانت قصيرة وسمينة، تشبه السمّان في أفلام الكارتون، قد يكون عمرها كعمر المرأة أو كعمري، لا أستطيع التحديد بالضبط بسبب سمنتها، لكن شعرها ليس رمادياً، وليس كثيفاً أيضاً، ولها عينان واسعتان، تحدقان بزاوية منحرفة قليلاً عن هدفها، تكلمني وتسرح ببصرها إلى السلم، إلى الأسفل أو إلى الأعلى، قالت: "إزيك؟"، فرددتُ: "تمام".

لاحَظَت أن صوتي مبحوح، فبادرت بالمساعدة، قالت إن لديها وصفة أعشاب لعلاج حنجرتي المشروخة، ودعتني إلى الدخول، تأسفت: "معلش، في وقت تاني". حاولت تفاديها والعبور، لكنها أمسكت يدي، وشدتني برفق للدخول، فاستسلمت لحركة يدها، ودخلت معها.

في مدخل البيت مسمار معلق عليه قميص وردي اللون، مهترئ وعليه تطريز بارز على الصدر، عصفور من الخيوط الوردية بدرجة أغمق وله منقار طويل، ممشوق ويرف جناحيه، أظن أنه لن يناسب كتلة حجمها الحالية.

دخلتُ خلفها، وشممت رائحة الطبخ في الداخل، كان البيت معبأ برائحة خفية للطبخ الدافئ، الذي تم طهوه منذ وقت، فترك آثاره في البيت كله. أجلستني على كرسي منضدة السفرة، التي تتوسط الصالة الصغيرة، ثم دخلت إلى غرفة المطبخ المكشوفة لي

من هذه الزاوية، كل شيء كان ساكناً، والحيطان كانت مسودة من آثار الدهان، وعلب كثيرة مستطيلة مرصوصة على رخامة المطبخ جوار البوتاجاز، وعلب بلاستيكية بكل الألوان، سحبت إحداها وأخذت بعض ما في العلبة، أذابت المحتوى في الماء، ثم تركته يغلي على النار، ثم صبته في كوب زجاجي صغير، ومشت بثقل ناحيتي، ووضعت الكوب أمامي لأشربه. كان البخار ينبعث من الكوب إلى أنفي، بخار كثيف له رائحة عشب محروق، سعلت بقوة، فابتسمت المرأة وقالت: "كويس أوي، ده بيجلي الصدر، اشربي".

قالت بتهتهة واضحة، فهززت رأسي، ورشفت من المشروب المر على مضض. كانت نظراتها زائغة، تنظر إلي ثم تسرح فجأة ببصرها، خلفي أو جواري، هدّأني المشروب وأرخى أعصابي، ففردت رجلي تحت المنضدة، وشعرت بكتلة من اللحم تتمسح بي، كانت هناك قطة من قطط البيت، نظرت إلى الأسفل، فوجدتها نائمة هي وعيالها، والجارة تمد قدمها تداعب أحدهم، ثم بدأت أدرك أنني محاطة بكل قطط البيت في كل مكان في شقة الجارة، تحت المنضدة، وفوق الكراسي، وأمام الأبواب، وهناك طعام ملقى في الأركان إليهم.

ركلت القط بقسوة تحت المنضدة بقدمي، فصرخ، كان صراخه إشارة إلى كل عائلته للتأهب وللصراخ مثله، تحول الصراخ إلى صرير يقطع رأسي، الجارة الغريبة تبتسم، ترى فزعي وتبتسم، أنظر إلى المشروب وأفهم أنها وضعت لي شيئاً لتنومني، لتقتلني، أضع يدي

على رأسي، تتسع ابتسامتها، عيناها الواسعتان تتسعان أكثر بشكل مرعب، أراها تميل تحت المنضدة، ترفع القط المضروب من مكانه، هو ما زال يصرخ، قط أسود وممشوق، تضعه في حجرها، وتضع إصبعها في أذنه، وعلى رأسه، يستكين القط بين يديها ويهدأ، يغمض عينيه ويصبح وديعاً، كل القطط التي كانت متأهبة منذ قليل سكنت أيضاً، عادت إلى مكانها على السجاد المريح.

"غلابة"، تقولها الجارة وهي تمسد بيدها على القطط، أهز رأسي، تسألني: "إنتي الساكنة الجديدة مع الست اللي فوق؟"، فأهز رأسي مرة أخرى، تكمل: "لو طردتك زي البنت اللي فاتت، تعالي عيشي معايا". أهز رأسي، وأسألها: "إنت هنا لوحدك؟"، فأسمع صوت شيء يتحرك في الغرفة المغلقة أمامنا، فترد: "لأ". "مين معاكي؟"، تضحك بصوت عال وتجيب: "القطط".

تترك القط يقفز إلى أصدقائه، وتتحرك لتجلس جواري، تضع يدها على ساقي وتقول: "شايفة، أنا عايشة هنا لوحدي، القطط بتونسني، محتاجة للونس دايماً".

تسحب يدها وتضعها على ظهرها، ثم تأمرني: "اشربي اشربي".

أهز رأسي للمرة الخمسين في هذه الجلسة وأشرب، أشعر بكتلة في صدري تتحرك مع المشروب إلى أسفل معدتي، أقول بهدوء: "شكراً". فتبتسم، تتحرك إلى كرسيها الأول، وتقول: "الحياة صعبة أوي، إنتي عارفة!".

أهز رأسي، وأستأذنها في الخروج، فتمشي معي حتى الباب،

تمد يدها وتسلم عليّ، ثم تقول: "المرة الجاية هقرالك الفنجان، متأخريش". "طبعاً، أكيد".

ثم أتركها لقططها، وأذهب أنا إلى امرأتي الإوزة.

## -٢-

يتغير شكل البيت، يتغير شيء لا أستطيع تحديده، أعود إلى رؤيته مثل أول زيارة، كان غريباً وموحشاً، الطُرقة الطويلة في آخرها غرفة كبيرة، نسميها الصالة، عكس بيت الجارة الذي تقع صالته في مدخل الباب، في منتصف الطُرقة غرفة المرأة المغلقة، وهي بالتأكيد في الداخل ناعسة فوق سريرها المريح، تدلّي يدها إلى الأسفل، وتترك الجسم يستريح، وإلى جوارها غرفتي، غرفتي مثلثة، أمام الباب نافذة تطل على منور البيت، ثم حائط يفصله عن بقية الغرفة، ثم سريران، واحد يقطع الآخر بالعرض، وأعلى السرير على اليمين نافذة أخرى، تطل على شارع صغير فيه دكاكين قديمة.

دخلت إلى البيت منهزمة وحزينة، أفهم الآن كيف يكون الحزن الكبير، ليست هذه المأساة المحببة، ليست صرخات المأساة التي لا أجيدها، لا أحب الدراما، أقول لنفسي هذا باستمرار، لا أحب هذا النوع الرخيص من البكاء على الأطلال، لكن حزني كبير، وهناك جراح كبيرة في داخلي، دفعت روحي رغماً عنها إلى الصمت.

أمشي خطوة في البيت، وأرغب في الغناء. أفكر في حبيب قديم،

حبيب من الطفولة، استحضر نوني، محبوب مغنيتي، أستطيع أن أخلق لها أغنية جديدة وأغني معها، ستمط صوتها الرزين، تقف عند شباكها، وتدع جلابيتها تسقط من كتفها، ستقول:

"أنا جوعانة، وأريد أن آكل البرتقال، أريد أن أنتظرك في المساء، وحيدة في شرفتي، مرتدية فستاناً وردياً له دانتيل على الصدر، نقش عليه عصفور بمنقار طويل، ويرف جناحيه إلى الأمام. أنتظر كثيراً، أعد النجوم، وأراقب حركة القمر المكتمل، أنتظر حتى أيأس من مجيئك، فأغني لحزني عليك، لغضبي منك، ثم لاشتياقي المر، سأقول إن لمستك على كتفي هي الحب، وإنك أخضر، أخضر كالتل المرتفع في حلم طفولتي، وإنك أصفر كالصحراء التي مشيت فيها وكادت أن تقتلني، وإنك تشبهني، وينكسر جفنك عندما تضحك مثلي، وإن لك اللمعان نفسه على الخد، فأضحك، ثم أبكي عندما يوشك القمر على الرحيل، ويختلط الضباب باللون البنفسجي. يؤلمني الانتظار ويزيد حبي، ثم ألمح ظلاً يأتي من بعيد، فيتجدد الأمل وينكسر".

قلت سأغني إن عرفت، لكنني أؤمن بالوحدة أكثر من الحب الآن، لِمَ لا تغني هذه المجهولة للوحدة؟ لكنها تقول آموور "amour"، وهذا الحب مغوٍ لكتابة أغنية بالتأكيد، وليست الوحدة، مغنيتي لم تسعفني، طارت من دماغي، وصوتي كان ضائعاً، وروحي تائهة.

كنت أقف في الطُرقة، سمعت صوت المرأة تتحرك في الداخل، بعدها فتحت الباب وخرجت لتراني، نظرت تجاهي، لم أفهم ما

تعنيه هذه النظرة، لكنها أرادت التحدث إليّ، فهمت من تعلقها بعيني لثانيتين، لكنها تراجعت وعبرتني إلى الحمام، حركت خلفها الهواء الضئيل داخل الطرقة، جعلتني حركتها أهتز وأرتعش، فظللت متجمدة مكاني، لا أعرف ما الذي عليّ فعله بعد ذلك، هل أدخل غرفتي أم أنتظرها؟

تحركت قليلاً عندما سمعت صوت المياه تتدفق في الحمام، كانت المرأة تستحم، تذكرت نفسي تحت الدش أغني، وعينا أبو شامة تتلصصان عليّ، تذكرت لمسته وشعرت بالغرابة، هناك إنسان بعيد نام معي، ولم أدرك ذلك، لم أدرك معنى أن ينام شخص مع آخر، لم افهم أساساً لماذا سمي فعل المضاجعة بالنوم، هل هذا لأنه يحدث أثناء التمدد؟ طيب، إذن هذا الذي يحدث في أثناء الوقوف والجلوس لماذا يسمى نوماً؟ كنت أشعر بغرابة مختلطة بالاشمئزاز والحزن. استرجع الذكرى بحياد المتفرج، بالتحديد كأن التي كانت هناك لا تخصني.

الآن أستطيع تخيل الطمأنينة التي تحسها المرأة بسبب جسدها النحيل المحايد، لن تكون بداخلها الرغبة في تخبئة جسمها البارز، أو في تلاشيه، لا تعلن عن نفسها إلا عندما تريد، لديها إرادتها الكاملة، أفهم شعورها بالسكينة داخل بيتها، في صدفتها الزرقاء، يحيط بها السيراميك الأزرق اللامع، وينهمر الماء عليها وهي تسبح بحرية في مساحتها الآمنة، أستطيع فهم الفرق بيني وبينها، فهم المسافة التي أشعر بها وأحافظ عليها بيني وبين كل شيء في اي مكان.

نجحت في التحرك خطوتين إلى الأمام، فكرت في أنني لا بد أن

أعيد فستان المرأة إلى الدولاب، وأن هذه فرصة مناسبة لفعل ذلك، فدخلت غرفتها، ووضعت الفستان مكانه، أعرف أنه يحمل الآن رائحتي، بل ربما نقاطاً من دمي، لكن لا سبيل إلى تنظيفه وإعادته في وقت لاحق.

طبقته ودفعته وسط الملابس، كانت الأباجورة جوار السرير مضاءة، وكانت تعطي ضوءاً دافئاً للسرير المهندم، أستطيع أن أرى ظلها وظل رجلها يتحركان ببطء أمامي، يترقرقان بنعومة، أزرقان ومتحابان. هذه هي المرة الثانية التي أدخل فيها إلى هنا وأرى الظلال نفسها، كأنها متشبثة بدماغي، وتتركني لتمدد في مكانها الطبيعي، تسرح لتكمل دورة حياتها، تتحول من فعل ماضٍ إلى ذكرى، ذكرى مشتركة بيننا، ومن ذكرى إلى صورة. هذه الصورة تستمد وجودها من وجودي فتصبح لها دورة حياتها الراسخة والممتدة.

تمددت مكان الظلال، داخل الغرفة الحمراء التي يلمع فيها ضوء أزرق، وكنت أنا في الداخل كأنني داخل بلورة سحرية يغطيها الدخان الأحمر، تغطي الأضواء الحمراء وجهي وأحركه، فينعكس الضوء الأزرق من وجنتي إلى الحائط. انكمشت أكثر على السرير، تحسست رقبتي، فشعرت بتورم خفيف ناتج عن عضة، بالتأكيد عضتني السمراء بكل حقدها المكتوم، كنت مليئة بكدمات لم أدركها مرة واحدة، تذكرت جلستنا الدافئة في الصحراء، والنجوم فوقنا، ثم الانقلاب السريع الذي أدماني، شعرت بالارتباك، وتحول خوفي إلى قلق مؤرق، لم أستطع تحديد ما حدث، لكنني كنت أستسلم لطاقتي المستنزفة، وأرقد في موضع الثبات.

كان عليّ ترك السرير، خوف أن تجدني المرأة، فتضربني هذه المرة، فتمددت على الأرض. أردتُ البكاء، لكنني لم أستطع، رأيت دفاترها ملقاة على المنضدة، قد يكون الدفتر الذي كنت أبحث عنه موجوداً، قد تكون كتبت عني: "الفتاة التي تسكن معي خربت الدرج، وجعلتني أمزق روبي المفضل"، أو قد تكون كتبت: "دخلت إلى الغرفة لأرى كل شيء في فوضى، غضبت، ومزقت الروب الأصفر".

نعم، نعم، بالتأكيد ستكتب بهذا الوصف ، لن تذكر بريق عينيها المخيف وطريقتها المهينة في التعامل معي، لن يكون لي وجود داخل دفاترها، لم أعرف، ولم تكن فيّ الرغبة لأفتش دفاترها مرة أخرى. كان الضوء الأحمر ينعكس بأكمله على السرير، وأنا مكومة تحته في عتمة خفيفة، سمعت خطوات المرأة تتحرك تجاهي بثقل في الطرقة الطويلة، الآن ستدخل إلى الغرفة، أمسكت مقبض الباب وفتحته بحرص، نظرت ناحيتي، ولم تتوقف، اتجهت ناحية السرير وجلست فوقه، وتركت قدميها مفرودتين فوقي، تمس قدماها كتفيّ بخفة، ترتدي جلابيتها البيضاء المنقوشة، وتضع المنشفة على ظهرها، وتترك شعرها مفروداً إلى الخلف، تسقط منه المياه على السرير، سمعت تنهيدتها العميقة، ثم نزولها من السرير وجلستها جواري، ربّتت على كتفي، ووضعت يدها على وجهي، مسدته كما تمسد الجارة قطتها بحنان ورأفة، انفلتت دمعة من عيني، وتدحرجت ببطء على خدي، فلامست الدمعة أصابعها، فمسحت يدها على خدي بنعومة، وشدتني لأنام على السرير، استسلمت لحركة يدها، نمت

جوارها، ربّتت مرة أخرى على رأسي، مسحت على شعري، ثم فكّت الدبابيس التي ألم بها شعري إلى الخلف، فكّه، فظهر مُهوّشاً وخشناً، رفعَت رأسي بحرص، وأخذت شعري وفردته على المخدة إلى الوراء، ثم وضعت راسي مكانها. كنا متجاورتين، بسُمرتي وبياضها، بفستاني الأحمر المليء برائحة العرق، وهي بجلابيتها البيضاء النظيفة، وبجسد رطب وخفيف، حركت المرأة الأباجورة قليلاً، فأصبح الضوء الأحمر مسلطاً على الحائط، وينعكس علينا بشكل غير مباشر، جلست وفردت المنشفة في حجرها وسرحت شعرها بالمشط، فتناثرت حبات المياه على وجهي، ثم تمددت وفردت شعرها على المخدة خلفها كما فعلت معي، فأصبحت شعورنا تتمدد مرتاحة خلفنا، وتتدلّى من المخدة إلى خشب السرير. أمسكت يدي فشعرت بنفسي يرتعش، وبيدها الأخرى مسحت على شعري، وبدأت تتكلم، كانت تحكي وتحرك يدها برتابة على راسي، كان يا ما كان، تحكي عن أرض خلاء، عن مدينة غريبة كل أهلها من النساء، تحكي بصوت هادئ وقوي، صوتها عميق، أول مرة أدرك ذلك، تحكي عن غزلان تتحول إلى بني آدمين، وعن بشر تصيبهم اللعنة، فيعيشون في عزلة إلى الأبد، عن رحلة طويلة لعابر. تحكي بخفة، يدها تتحرك على راسي، وأشعر برطوبة وبرودة جلدها، عندما يمس ذراعها ذراعي، تنتقل من حكاية إلى أخرى بخفة، تدمج الحكايات، وتتكلم بصوت خفيض، تحكي عن متلصص دفعه الفضول إلى الدخول إلى المدينة، فأصابته لعنة ما. تتحرك كلماتها في رأسي، تدور كأنها تتكلم داخل جبل، فيتردد الصدى

في أركان الغرفة، يفعل فعل المخدر، أرى نساء مدينتها سارحات في حديقة شاسعة أمامي، يرتدين ملابس فضفاضة، وعيونهن سارحات في المجهول، كأنهن منومات، يحرك الهواء أثوابهن، فتنتفخ قليلاً، وأشعر ببرودة الريح، أنضم إليهن في الحديقة، أجلس على العشب الأخضر، على استحياء أشاهدهن من بُعد، أسمع صوت الموسيقا التي يحدثها النهر جوار العشب، صوت الريح الخفيفة، يقول الصوت إن الحكاية لا تنتهي أبداً، وأقع في النوم.

-٣-

في الصباح أجد نفسي مغمورة بالعرق على سرير المرأة، آخذ وقتاً لأدرك أنني في غرفتها، الباب أمامي مفتوح، ونور الصبح يجعل الغرفة صفراء ومغبرة، أزيح البطانية التي وضعتها المرأة عليّ، وألمس المياه التي بللت السرير، كل قطعة من جسدي كانت تنز مياه دافئة، شعرت بالحر وبالبرودة في الوقت نفسه، كنت أرتعش في فستاني الأحمر الذي تحول إلى خرقة مبلولة، خاصة من الظَهر، ورأيت نفسي في المرآة، كان وجهي بُنيّاً، ملفوحاً ومنتفخاً، أزحت البطانية وطبقتها، وسحبت الملاءة من السرير لأضعها في الحمام.

تمشيت قدر ما أستطيع، أستند إلى الحائط بيدي، قدماي حافيتان ومشققتان، أشعر بسخونتي، وببرودة البلاط، يعلق تراب البيت بقدمي، وأشعر باللزوجة تلفهما، ينز الماء على ظهري وينزلق إلى رجلي، ومن رجلي إلى قدمي، يتحول التراب إلى وَسَخ يُسوِّد كعبي. أدرك أنفاسي الثقيلة، والهواء الساخن الذي أزفره غصباً من معدتي، أشعر بالحر والبرد في آنٍ واحد، في الليل كان مخي يغلي، وكنت أهلوس بأشياء أحاول السيطرة عليها، تمتمت بأشياء عما حدث،

قد أكون ناديتهم بأسمائهم، كنت أحاول إخراج السم من بدني، وشعرت بيد تمسح على شعري، وصوت يحاول التهدئة. أتذكر الحكاية، هناك غزلان ونساء وسحر بالتأكيد، أتذكر الألم الشديد، كنت أتمنى النوم حتى يهدأ الألم في رأسي، فعلياً كان رأسي يتحطم، كأن هناك من أمسك مطرقة ودكّني بها حتى تهشمت عظامي تماماً. كنت أشعر بالسخونة المحتبسة في كل جسمي، تخرج من عينيّ لتقتلعهما من محجريهما.

وجدت المرأة تجلس على كرسيها في المطبخ، قالت: "صباح الخير"، فوضعت الملاءة في سبَت الغسيل ورافقها، عندما دخلت إلى المطبخ كانت تقلب الأرز في الحلة الموضوعة على البوتاجاز، فوقفت أمام الحوض لأملأ كوباً بارداً من الماء، كانت زاوية وقوفي تسمح بمس كتفي أنفها عند التحرك، أفهم أنها شمت رائحتي العطنة تفوح مني، نظرت لأرى رد فعلها، فشعرت بوجهها منقبضاً، تباطأت في الرجوع إلى الكرسي لأجعلها تلاحظ أنني مريضة، وضعت يدي على ظهري المبلول، وكدت أترنح من الدوار، نظرت هي إلى ظهري، ثم تحركت ببصرها إلى الأسفل، قد تكون لاحظت القطرات التي تسقط على قدمي، بالتأكيد هي لاحظت قدميّ الحافيتين الوسختين، بسبب نظرتها المحدقة إلى الأسفل.

رجعت إلى الكرسي أمام المنضدة، كان البخار يملأ المطبخ، وهي انتهت من عملها، وغرفت طبقاً لها، وضعته على المنضدة وجلست على الكرسي المقابل، حثت الرائحة شعوري بالجوع وزادته، لكنها لم تدعني إلى الأكل معها، ظلت تأكل بملعقتها بتؤدة،

تنظر إلى طبقها الممتلئ، وترفع عينيها بحرص ناحيتي، كأنها تريدني أن أنصرف، كانت مرتبكة وباردة، وأنا كنت أبتلع ريقي من وقت إلى آخر، أنظر إلى حامل الأطباق، وبدأت أعد الأطباق وفناجين روميو وجوليت، ثم اتجهت إلى رخامة المطبخ الفارغة، ولاحظت أن هناك فيلاً برونزياً عليها، إنه فيل الرجل، وجواره فوطة صفراء صغيرة، شعرت بوخز في صدري، ثم نظرت تجاهها، كان وجهها منهمكاً في الطبق، فمها منهمك في الأكل، لا تلاحظ نظراتي، لكنني ظللت أنظر إليها حتى لاحظت نظراتي، ظللنا متواجهتين ثوانٍ، وتركت لها ابتسامة ساخرة، وقمت.

كنت جائعة، وكان لا بد أن آكل، لم يهمني العرق، ولا الدوار، ولا عيناي الحمراوان. فتحت الباب وخطوت إلى الطابق الأسفل، إلى الجارة، قلت سأطرق الباب، وستفتح، بسهولة سأقول لها: "جعانة". بالفعل لم أتحمل العناء، مسحت تراب السلم بقدمي الحافيتين، لاحظت ظل المرأة السمين أمام زجاج بابها من الداخل، طرقت ثلاث طرقات خفيفة، وهي فتحت، تظاهرت أنها كانت نائمة، تظاهرتُ بالحرج، وقلت إنني مستعدة للتراجع لأجعلها تستريح، لكنها شدتني إلى الداخل، وتركت الباب موارباً خلفنا، وضعت يدها على ظهري، وشعرت بالبلل، سألت: "مالك؟"، بلا تردّد قلت: "جعانة".

خطت إلى مطبخها، وعادت بطبق فيه جبن وخبز، تجمعت القطط حول الطبق، هشّتهم بيديها، هششش، وطلبت مني الأكل سريعاً، ثم تحركت مرة أخرى إلى مطبخها. كنت أشعر

بالدوار في رأسي يدحرجها، ويرجرج مؤخرتها السمينة، تتدحرج في الذهاب وتتدحرج في الرجوع، عادت بفنجان قهوة ووضعته أمامي، وقالت: "اشربي"، اختفى وجهها الوديع هذه المرة، كانت تعطي أمراً لأنفذه، ثم تبدل مرة أخرى وتحول إلى قطة مسكينة مثل قططها، تتمسح فيّ ثم ينقلب وجهها فجأة، أكلت قطعة من الجبن، ورشفت من فنجان القهوة الساخن، شعرت بسخونته تثقب معدتي، كانت تحثني أكثر على الشرب، جلست في كرسيها السابق، ومدت قدمها أسفل المنضدة، تداعب القط بأصابع رجلها، "اشربي، اشربي"، وتنحني بكتلتها إلى الأمام، فيصبح وجهها قريباً مني، تضحك فأشعر أن ضحكتها غريبة، طفولية وفيها غلّ مكتوم. كانت المياه تغمرني أكثر وتسيل على قدميّ، فأمسحها بفستاني، انتهيت من القهوة وشعرت بالغثيان الشديد، لكنني تمالكت نفسي. هي أخذت الفنجان وقلبته على طبقه، ثم مدت يدها والتقطت قطاً برتقالياً هزيلاً تحت المنضدة، ووضعته في حجرها، وضعت إصبعها في أذنه، ومسحت على رأسه، والتفتت إليّ، ابتسمت وهي تقول إن الحياة غريبة، لم تكن عندي طاقة لأرد، ولو باهتزاز الرأس، اتسعت ابتسامتها وقالت: "أنا سعيدة إنك هتسكني معايا"، لم أفهم كلامها، ولم أستطع الرد، أنا جئت فقط لأنني جائعة، جملة مثل تلك كانت من الممكن أن تثير غضبها، وأنا لا أملك قوة الدفاع عن نفسي الآن، تركتها تتكلم: "أنا وإنتي متفاهمين جداً، إحنا شبه بعض أوي"، استطعت أن أهز رأسي لكنني لم أعِ بالضبط ما فعلته، "إنتي عارفة الحياة صعبة، الوحدة صعبة، ومحدش بيفهمني، إنت

فهمتيني"، يزداد كلامها إيغالاً في رسم حدود العلاقة التي بيننا، كان من الواضح أنها تعرف كل شيء عن علاقة بيننا لم يعلمني أحداً من قبل بها، قربت وجهها أكثر، أمسكت فنجان القهوة، ووضعت إصبعها الذي كانت تضعه في أذن القط في فمها، مصتهُ ووضعته في الفنجان، وبدأت تدير الفنجان أمامها، "هناك طير في الفنجان، ممكن سفر، وممكن ..."، سكتت، لحظة صمت طويلة، ثم قلبت الفنجان في الطبق مرة أخرى، "عارفة، هناك أيام أليمة تمر عليّ داخل الوحدة، أتمنى الموت، الطيران خفيفة، أحسد المنتحرين، قدرتهم وشجاعتهم على إنهاء الحياة الغبية"، تتكلم وتوغل في كلماتها عن الموت، تعبر صورتي مرمية في الصحراء أمامي، وأنظر إلى بيتها الواسع الذي يبتلعها وأضحك. ترى ابتسامتي فتبتسم، "أنا فرحانة جداً إنك جيتي"، تقولها بصيغ مختلفة، تزحزح القط عن حجرها وتقف، تأمرني بتبعها إلى الغرفة التي ستعطيني إياها، أتبعها، ظهري ينحني، وأنكمش حتى أكاد أوازي كتلتها القصيرة، تدخل إلى غرفة متوسطة الحجم، عليها طلاء مقشر في مواضع كثيرة، لكن لها شباك، أنظر منه إلى الأعلى، فأرى المرأة تنظر من شباكها، غرفة الجارة هذه أسفل غرفتي، فمن هذه الزاوية تقابلنا نافذة المرأة إلى الأعلى. تتلاقى عينانا، وأرى نظرة اندهاش، فأتجاهلها.

تقف الجارة جواري، نطل من النافذة، أمامنا حبال غسيل منشور عليها ملابس الجارة المتهالكة، تنسحب من جواري، وألمح طائراً يرفرف بالقرب مني، ثم يحط على حبل الغسيل، أمد يدي لألتقطه، فيهرب، تعود الجارة بكرسي قصير، تضعه جواري وتقف فوقه،

وتدلّي جسدها إلى الأمام، وتمد يدها لتخلع المشابك وتلتقط الملابس، "الغرفة لكِ"، أعرف أيتها الثرثارة. يرجع العصفور مرة أخرى، يحلق فوق رأسها مباشرة، هذا هو الطائر في الفنجان، تتشبَّث بقدميها فوق الكرسي حتى يكاد نصفها يتدلى خارج الحبال، يمس كوعها ظهري، فيزيد إدراكي بالمياه التي تغمرني، يحط العصفور فوق أول حبل غسيل، أشعر بالحرارة تخرج من عيني فتغرورقان، تمد الجارة يدها لتلتقط العصفور، "الحياة صعبة أوي"، أمد يدي تجاه ظهرها، أستجمع كل قوتي، وألقيها من الكرسي إلى خارج النافذة، يفزع العصفور، تتشبث الجارة بالحبال المهترئة لوهلة، تأخذ الحبال بالغسيل الملون وتطير، أراها تحلق مع العصفور في الخارج، كتلتها السمينة ترفرف بخفة، تفرد ذراعيها، تلتفت برأسها إلى أعلى، فتلاقى أعيننا، باي باي يا حلوة، أشير لها وأبتسم، وأسمع صوت الارتطام المدوي على أسفلت الشارع المتسخ.

شعرت بالبلل يغمرني أكثر، وبالسخونة تغلي في رأسي، كانت الضوضاء تتسع في الأسفل، جاءت المرأة من بيتها إلى بيت الجارة، ترتدي فستانها الأسود بوردته الرمادية، رأت كل شيء من نافذتها في الأعلى، جاءت لتواجهني بالجريمة، فرأتني أضحك، انحنت ووضعت حذاءً في قدمي، ولفّت يدها حول خصري، وسحبتني بسرعة خارج الغرفة إلى الصالة، التقطت الفنجان وطبق الجبن من المنضدة ووضعتهما في حقيبتها، كانت القطط في كل مكان تمط أعناقها وتموء مستفهمة، تبحث عن أمها التي ماتت وارتاحت من عذاب الحياة الغبية منذ قليل، ههه، شعرت بالنشوة لمقدرتي على

إشعارها بالراحة، وكنت أرتعش.

لفّت المرأة شالاً أسود قطيفة على كتفي، وتشبثت بخصري أكثر، وأنزلتني بهدوء على السلالم، كنا نسمع أصوات أقدام تجري تجاه الأعلى، أقدام صاعدة إلى شقة المرأة تحاول فهم ما حدث، تعبر المرأة بكل هدوء جوارهم، وتتشبث بي كلما اقتربت الأقدام، لا تقف المرأة مع صوت الصراخ، يحاول إيقافنا أحد الأغراب، فتعتذر إليه بهدوء، وتتركه بسرعة لتمنعه من الحديث، تسبقنا الأقدام إلى شقة المرأة، تدب في كل مكان، نشعر بها فوقنا، فتسرع المرأة خطاها وتجرني معها. عندما ننزل إلى الشارع، أرى دائرة من البشر حول جثة الجارة التي تفرد ذراعيها، ألاحظ عينيها الجاحظتين، وبقعة دم قانية تسيل من دماغها المشقوق.

تلفني المرأة بسرعة متحاشية النظر إلى الجثة، وتنعطف إلى السوق، تمشي بخطوات ثابتة ناحية المحل، أعرف أنها ستوقف عنده، تتوقف عنده بالفعل، لكنه مغلق، تمسكني، وأشعر بأطنان من المياه تسيل من رأسي على جسمي، تدخل بي إلى البيت المتهدم، تطرق الباب الصغير، باب بيت الرجل، يفتح لنا وهو يرتدي ملابسه كاملة، يدخلنا الرجل ويجلسنا على كنبته، يذهب إلى غرفته، ويلتقط كرتونة النقود، ينحني ليرتدي حذاءه، أميل برأسي، وأريحه على كتف المرأة، أنظر إلى صورة الرجل مع امرأته، فلا أجدها، أجد الحائط معلقاً عليه صوري وأنا أبتسم أمام الدكان، وهناك صورة للفتاة السمراء، وأخرى لي مع شلة الشباب مجتمعين وخلفنا الصحراء.

أبتسم، تنظر المرأة تجاه بصري وتجد الصور، ولا تبدي أي تعبير.

يعبر بنا الرجل دكانه، كل شيء ساكن في مكانه، تحيط أذرعهما بي، يلفان الشال على كتفي بإحكام، يتمشيان بي من شارع إلى آخر، كانا يجراني، كنت أريد الضحك واللهو، يسيل مني العرق ويجعلني زلقة. نصل إلى شارع صغير مسدود، فيه سيارة حمراء قديمة ومتسخة، قد تكون ماركة الستينيات، يرقد فوقها كلب أسود، يهشه الرجل، لكن الكلب يقترب مني ويزمجر، فأرد له زمجرته وأضحك، فيعلو نباحه أكثر، ثم أرى خلفه كلاباً كثيرة، تخرج من كوة مجهولة، تهز ذيولها وتمرح، ينهرها الرجل بسرعة، يسبها، ويفتح السيارة، يضعني في الكرسي الخلفي، ويجلس هو في موضع القيادة والمرأة جواره، "سنذهب في نزهة"، تقول المرأة، وتتسع ابتسامتها، فتظهر أسنانها اللامعة في المرآة، أبادلها الابتسام. يخرج الرجل بالسيارة من الشارع، وتتحرك إلى الأمام، أسمع طقطقة صدأ صاج السيارة الصغيرة، يهمهم الرجل بكلام لا أفهمه، ويتبادل ابتسامة ونظرة مع المرأة، يصدر الموتور صوتاً عالياً كأنه يكركر. أمدد قدمي على طول الكنبة الخلفية، وأفتح النافذة، وأخرج رأسي منها، يدغدغني الهواء، ويطير شعري المبلل إلى الخارج، يجففه ببطء، يستطيل شعري، فأشعر بالسعادة، أندم لأنني لم أطلب من الرجل إحضار مغنيته معه، أحاول استعادة صوتها، هناك آموور "amour"، وآموور يعني الحب. تبدأ أغنيتها بالعزف الهادئ على البيانو، ثم يغني الصوت الأنثوي، بإيقاع أقرب إلى القراءة، كأنها تتكلم مع شخص ما، لا تغني أمام الجمهور، من وقت إلى آخر تحرك حنجرتها إلى الأعلى قليلاً، فتصبح كلماتها ممطوطة بهدوء، المغنية

بالتأكيد حزينة، أشعر بنعومة هذا الحزن المجهول يحركني، صوت البيانو يسيل مع صوت الفلوت، يترقرق بخفة، لن تغني لنوني ولا لوحدتي في الليالي الساهرة، لن تغني لحبيب تنتظر منه البرتقال. أراها الآن تحلق في فقاعتها السوداء القاتمة، تغني أغنية عن ثلاثة يعيشون في المدينة، يتمنون الذهاب في نزهة طويلة، نزهة لا تنتهي. تقول إن هذا لا يعني الحب، إنه يعني كل شيء، ثم يهدأ إيقاعها، وتتحرك مع الحكاية في الشوارع المشمسة، تمر ببائع البرتقال، وتأكل معه برتقالة، وتصف له كم هي شهية بضاعته، ترتدي بنطلون جينز قديم، وقميصاً أبيض يُظهر عظام كتفيها البارزة، وتمشي بحرية وسط نظرات المتلصصين. تقول إن المدينة كانت ممتلة وصاخبة، وإن ثلاثة أغراب قرروا الذهاب في نزهة داخل سيارة متهالكة، وإن هذا مثير للضحك، هذا ليس الحب، إنه لا شيء، أو إنه كل شيء. تقول ذلك بطريقة تبدو حزينة، لكنها في حقيقة الأمر تضحك، فأضحك معها، أطل برأسي كله خارج النافذة، أبدأ بالشعور بالجفاف وبتوقف المياه السائلة، أستمتع بالنسيم الخفيف، وأشعر بالسلام يملؤني. أنظر إلى المرأة، فأراها متكئة على نافذتها، ألمح نصف ابتسامة على وجه الرجل الذي يسير بسيارته إلى الأمام، أشعر بالمجهود الذي يبذله في سياقة هذه الخردة، لكنه ينجح في عبور ميدان التحرير، يلتفت إلينا، ويسألنا عن مكاننا المفضل للتنزه، يبدو صوته عميقاً وجميلاً، نجيبه أنا والمرأة: "انطلق في كل شوارع القاهرة".

# برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

شابة وحيدة تبحث عن عمل وملاذ لها وسط الخراب. بعد طردها من الصحيفة التي تعمل فيها، تجد نفسها تائهة في دوّامة القاهرة المخيفة.

تستحوذ المرأة، التي قبلت أن تؤجّرها غرفة في شقتها، على تفكيرها بسبب أطوارها الغريبة. تسعى للخروج من أزمتها فتقع على مجموعة من الشبان يقودونها معهم إلى العالم السفلي حيث الهرب من الواقع سلاح بقائهم الوحيد.

بين اضطراب شخصيّة المرأة وغموض عالم صاحب دكّان التّحف، تجد بطلة الرواية فسحةً كبيرة لهذيانها في شوارع المدينة القاسية على أبنائها المتكئين على أوهام.

**هدى عمران كاتبة وشاعرة مصرية. نشر لها مقالات ونصوص في عدة صحف ومجلات عربية. صدر لها في الشعر 'ساذج وسنتمنتالي'.**

AFAC آفاق
www.arabculturefund.org

DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com

ISBN 978-614-03-2063-5
9 786140 320635 >